ثقافات الشعوب

@ketab_n
Follow Me
24.11.2017

@ketab_n
Follow Me

غصن الزنبق الأبيض

حكايات شعبية من بلاد الباسك

جمع: ماريانا مونتيرو
ترجمة: أحمد مغربي

غصن الزنبق الأبيض

حكايات شعبية من الباسك

جمع:
ماريانا مونتيرو

ترجمة:
أحمد مغربي

Twitter: @ketab_n

كلمة
KALIMA

أبوظبي للثقافة والتراث
ABU DHABI CULTURE & HERITAGE

Twitter: @ketab_n

غصن الزنبق الأبيض

حكايات شعبية من الباسك

© هيئة أبوظبي للثقافة والتراث، المجمع الثقافي
فهرسة دار الكتب الوطنية أثناء النشر

غصن الزنبق الأبيض: حكايات شعبية من الباسك

© حقوق الطبع محفوظة
هيئة أبوظبي للثقافة والتراث (كلمة)
الطبعة الأولى 1431 هـ 2010 م

GR162. B3. M5612 2009
Montiero, Mariana
[Legends and Popular Tales of the Basque People]
غصن الزنبق الأبيض: حكايات شعبية من الباسك/ جمع ماريانا مونتيرو؛ ترجمة أحمد مغربي. -
ط.1.- أبوظبي: هيئة أبوظبي للثقافة والتراث، كلمة، 2009.
144ص؛ 19x12.5 سم. (سلسلة ثقافات الشعوب).
تدمك: 9- 507-01-9948-978
ترجمة كتاب: Legends and Popular Tales of the Basque People
1 - القصص الشعبية الإسبانية. 2 - القصص الشعبية الفرنسية. أ- مغربي، أحمد.
ب- العنوان.

مراجعة وتحرير: سامر أبوهواش
إخراج وتصميم: أحمد عبد الله النتان

كلمة KALIMA
info@kalima.ae
www.kalima.ae
ص.ب: 2380 أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة، هاتف: 468 6314 2 971+ ،
فاكس: 462 6314 2 971+

www.adach.ae
ص.ب: 2380 أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة، هاتف: 300 6215 2 971+ ،
فاكس: 059 6336 2 971+

إن هيئة أبوظبي للثقافة والتراث (كلمة) غير مسؤولة عن آراء المؤلف وأفكاره وإنما تعبّر آراء الكتاب عن مؤلفها.

حقوق الترجمة العربية محفوظة لكلمة

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأي وسيلة تصويرية أو إلكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أي وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات واسترجاعها دون إذن خطي من الناشر.

Twitter: @ketab_n

المحتويات

الموضوع	رقم الصفحة
تقديم	9
خوان زوريا: أمير إيرن	27
غصن الزنبق الأبيض	44
أغنية لاميا	66
عذراء المُدن الخمس- أنشودة قصصية	90
كورو سيفيكاتورين كانتا - أنشودة قصصية	99
الإغارات- أنشودة قصصية	104
الحرب المقدسة- أنشودة قصصية	110
نبوءة لارا- أنشودة قصصية	117
هوركا- مندي	131

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

هذه السلسلة

تأتي هذه السلسلة التي تجمع تراث الشعوب من الحكايات والأساطير والخرافات الشعبية، منسجمة مع الأهداف والقيم التي اختطتها لنفسها مبادرة «كلمة» منذ البداية، كمشروع رائد للترجمة في العالم العربي. تلك القيم والأهداف التي تسعى أبوظبي إلى تجسيدها، لتشيع ثقافة التسامح والحوار، وبناء جسور التواصل بين شعوب الأرض وحضاراتها، وتعزيز العمق الثقافي الجامع بين مختلف الأعراق والجنسيات والثقافات، وجمعها تحت سقف واحد، هو سقف الثقافة والمعرفة والكلمة التي تجمع ولا تفرّق.

وليست حكايات الشعوب هذه، التي تقدّم للمرة الأولى لقرّاء العربية بمثل هذه الشمولية والكثافة والاتساع، إلا ترسيخاً لهذا المشترك الإنساني الجامع. وكأن ما اصطلحت البشرية على تسميته «عولمة» منذ عقدين من الزمان أو نيّف، كان متحقّقاً بالفعل منذ مئات بل آلاف السنين، عبر حكايات نجدها تتنقّل بحرية من أرض إلى أرض، ومن لسان إلى آخر، إذ تطرأ عليها تعديلات هنا أو هناك، لتناسب ثقافة هذا الشعب أو ذائقة تلك الأمة، أو ظروف تلك الجماعة. وفي بعض الأحيان نجد الحكاية نفسها - مع تغيير في أسماء الناس والأمكنة - تروى في أقاصي الشرق، على نحو ما تروى في أقاصي الغرب، أو

Twitter: @ketab_n

شمال الأرض أو جنوبها. فإذا كانت الحكايات تتمتع بميزة أساسية فهي قدرتها على اختراق الحدود الجغرافية والعرقية والنفسية والسياسية والدينية واللغوية، لتولد في كل مرة، وعند كل قوم من الأقوام، بصورة خاصة وفريدة، تشير إلى خصوصية الذات.

وهكذا، تبقى الحكايات سرّ هذه الأرض الواحدة، نبتتها أو لنقل زهرتها الفريدة، التي نبتت من تربتها الخصبة الواحدة، ونمت تحت سمائها الشاسعة الواحدة، لتجوب آفاق الدنيا، مبدّلة ربما أثوابها وألوانها، ولكن محتفظة دوماً بجوهرها الإنساني الفسيح والعميق.

وإننا إذ نقدّم هذه الحكايات، زهرات الأرض الفريدة هذه، في باقة واحدة ثرية الأجناس والألوان، فإيماناً منا بأننا على اختلاف ثقافاتنا وحضاراتنا، أبناء هذه الأرض الواحدة، وبأن ما ترويه جدّة ما لأحفادها في أصقاع القطب الجنوبي، من حكايات تؤكد قيم الخير والحب والعدالة والسلام، ترويه - وإن بلغة أخرى - جدة أخرى في أصقاع أخرى من الأرض، وهذا ما يجعل الحكايات الشعبية ميراثاً أصلياً للبشرية جمعاء، بقدر ما هي ملك أصلي لكلّ شعب من الشعوب وثقافة من الثقافات.

د. علي بن تميم

مدير مشروع «كلمة» للترجمة

Twitter: @ketab_n

تقديم

أضع أمام القارئ هذه الخرافات والقصص الخيالية والأناشيد القصصية والحكايات الشعبية الباسكية[1]، التي تمتد جذورها إلى تقاليد قديمة شكّلت جزءاً من موروث الباسكيين عن أجدادهم، وتناقلته شفاههم عبر الأجيال. وأظن أنه من المناسب الحديث عما تمتلكه هذه الحكايات والخرافات من أهمية أخلاقية وتاريخية، إذ تشكّل صدى أميناً وانعكاساً صادقاً للمشاعر التي سادت في الأجيال الماضية.

مضى زمن كان ينظر فيه بازدراء إلى هذه الخرافات، من قِبَل بعض السطحيين ممن لم يتمكنوا من استيعاب الدروس العظيمة والمشاعر السامية التي تكمن خلف شكلها البسيط. أما اليوم فقد أضحت هذه الحكايات والخرافات موضع دراسة معمّقة.

(1) يعيش شعب الباسك تاريخياً ضمن إقليم يمتد عبر جبال البيرينيه الغربية على الحدود بين فرنسا وإسبانيا، وتبلغ مساحة هذا الإقليم 20 ألف كيلومتر مربع. وتنقسم بلاد الباسك سياسياً بين إسبانيا وفرنسا، لكن شعب الباسك الذين ينتشرون عليها يتكلمون لغتهم الخاصة، أي الباسكية التي تعدّ من أصعب لغات العالم (م).

Twitter: @ketab_n

وقد تمكنت عقول المفكرين المعاصرين من سبر غور الظلال التي تركتها المجتمعات الغابرة التي بادت حاملة معها أسرار فكرها وحضارتها وأنماط عيشها. فهذا الإرث من الحكايات يمثل سجلاً لمجتمعات الأسلاف، ويحتوي كنوز معارفها ومعتقداتها، ويسجّل طرائق حياتها، ويؤشّر إلى عظمة تاريخها.

يتحدّر الباسكيون، ككل الأعراق البدائية، من العائلة الأبوية عينها. وكانت لهم عادات وطقوس مماثلة، مما جعلهم يمتلكون الكثير من التقاليد التي تتشابه مع سواهم من الأمم على الرغم من الفروقات الجغرافية والدينية والمناخية وغيرها من المؤثرات المادية والمعنوية.

وفي مقابل ذلك، يتفرّد الباسكيون في قدرتهم على الحفاظ على هويتهم الوطنية وأعرافهم وعاداتهم وقوانينهم ولغتهم، من دون أن تمسسها الأعاصير التي عصفت بهم تاريخياً، وكذلك من دون أن تتأثر بالثورات الكبرى التي هزّت تاريخ أوروبا فقوّضت إمبراطوريات كبرى، وأنهكت أمماً قوية، وأبادت لغات وأحياناً أعراقاً بأكملها. وقد دفعتهم حيويتهم المميّزة وروحهم الحربية، إلى القتال على اليابسة وتحقيق انتصارات في البحر. واكتشفوا مناطق مجهولة وسيطروا عليها. وكذلك مكّنهم ذكاؤهم العمليّ

Twitter: @ketab_n

من تجميع عناصر عدة وصوغها بمهارة في قانون حكيم عزّ نظيره. لقد تبعوا تلك الروح التي ميّزت عِرقهم تقليدياً. وكذلك وثقوا بها للحفاظ على مؤسساتهم وتاريخهم. وفي المقابل، لم يُدوّنوا على الورق لا تلك الأفعال المجيدة ولا مفاتيح تنظيمهم المتين، ولا حتى تلك الروح السيادية التي تبدو راهناً غير مفهومة بالنظر إلى الحدود الضيقة لما يحوزونه من أراض وثروات.

وبعد أخذ تلك الظروف جميعاً في الاعتبار، فأي أهمية تكمن في تجميع آلاف القطع المتناثرة من تقاليد تلك الأمة ومعتقداتها، التي تلتمع كالبرق في ليل داكن وتُظهر الحُجُب الكثيفة المُسدلة على الأسرار المستغلقة لتاريخ شعب الباسك المجيد؟

ثمة من يستسيغ وضع المعتقدات الشعبية في زعم مفاده أنها تنجح في تأبيد التفكير الغيبي عند الشعوب. ولسوء الحظ، يصعب إنكار ميل العامة إلى الغيبيات.

وفي الوقت عينه، تجدر الإشارة إلى أن العظماء والمبرّزون يشاطرون العامة ذلك العيب. ويُثبت ذلك أيضاً أن المعتقدات الشعبية ليست المصدر الأوحد للتفكير الغيبي. فبمقدار عجز الإنسان عن فصل الحقيقة عن الزيف في الزمان والمكان، وأيضاً في العالمين المادي والمعنوي، يسمح لنفسه بالانجذاب إلى ما هو

Twitter: @ketab_n

غير مفهوم ولا معلوم. وكذلك يسعى بشغف للسير في المساحات الغامضة للمتخيّل كي يشبع حشريته وفضوله، وليحصل على تفسير آخر لما عجز عن استيعابه عقلانياً.

ليس ثمة طريق آخر لفهم الوجود المديد للغيبي عند الأعراق كلها، بغضّ النظر عن تقدمها في الدين أو الثقافة أو في الامتداد التاريخي. فلقد استمر التفكير الغيبي في التفاعل مع روح الإنسان عبر العصور، مثلما يفعل راهناً أيضاً، متجاوزاً تأثيرات الدين والمناخ والتقاليد وغيرها.

فمن المُستطاع القول إن الإيمان بالساحرات قد تقلص في الأزمنة الحديثة. وفي المقابل، فإن عالَماً من الأرواح قد برز في الأزمنة الراهنة، بحسب ما يُصرّ كثير من الروحانيين الذين يزعمون أنهم يعيشون في تآلف تام معه. ولا يأنف هؤلاء من القول إن أرتالاً من الأرواح باتت في متناول أيديهم، وإن هذه الأرواح على استعداد أن تملأ أكثر مدن أوروبا ثقافة بالرُعب والدهشة.

وإذا ساد الميل للسخرية من تنبؤات الروحانيين وادعاءات مُمتهني فنون السحر، فإن قلّة قد لا تكترث عندما تسمع من مُسَرنِم (= من يسير أثناء نومه) أنه يستطيع، وبعينين مُغمضتين،

Twitter: @ketab_n

رؤية بداية مرض السلّ في الرئة أو ملاحظة التغييرات الأولى المرتبطة بمرض ما في القلب قبل ظهور أعراضه.

وبشكل عام، تنبع المعتقدات القديمة من الإيمان أو من شعور أخلاقي عظيم. وتُلقي أخيلتها أضواءً على فضيلة عميقة أو حقيقة كبرى. لذا، فغالباً ما تُخلّف وراءها عِظة أخلاقية أو شعوراً سامياً. ولإقامة البرهان على أن معتقدات الأسلاف مصدر للفطرة النبيلة، يكفي أن نتأمل في أبسطها. فمن لم يسمع في مناطق الباسك، بشكل أو بآخر، حكاية أرغويدونا؟

«انقضى النهار. وجرجرت المرأة الجبلية رجليها لتصعد في الطريق الضيقة المؤدية إلى كوخها. بكت بحرقة. وغاص قلبها في حزن عميق. لقد فقدت ابنها الوحيد الذي كان شمس حياتها. وتآزر شفق الغروب والصمت المُطبِق المحيط بها والحزن الليلي الغامض، في نكء جراح قلبها. تذكّرت طفلها. وبكت. ونظرت إلى السماء. ثم مضت في طريقها. اقتربت أكثر. باتت قريبة من المقبرة التي دَفَنَت فيها قبل أيام قليلة بقايا من أحبّت.

وتراءى لها قبر ابنها. فوضعت يديها على قلبها كأنما لتمنعه من التشظّي من شدّة حزنها ومرارتها على فقدان ابنها الحبيب. وفجأة لمع نور غامض غريب فوق سور المقبرة. واقترب من الأم،

Twitter: @ketab_n

متمايلاً في حركات رائعة تمازجت مع الظلال. وعندما لمحت الضوء، خرّت الأم على ركبتيها. ومدّت يديها صوب الوهج. وبصوت واهن سألته: يا ابن قلبي، أأنت سعيد؟

وتوهّج الضوء، وكأنه يهمّ بالإجابة عن السؤال. ونشطت حركته. واقترب منها أكثر. وقف قرب رأس الجاثية على الأرض. واجتاحت الأم مشاعر لم تعد تدري ماهيتها. فأغمضت عينيها. من يدرِ؟ ربما يحالفها الحظ وتسمع صوت ابنها العذب. ربما يحالفها الحظ ويمنحها قبلة طال انتظارها. ولكن الضوء تابع ارتفاعه صوب السماء. واختفى في لُجَب من ظلال معتمة. وقفت المرأة على قدميها هنيهة. وركزت ناظريها في البقعة التي اختفى فيها الضوء. ثم راحت تناشد السماء مصلية. واستأنفت المشي صوب منزلها، باكية. وسالت دموع دلّت على استسلامها لمصيرها، فأراحتها.

في تلك الليلة، لم يجفُ الرقاد جفنيها، كما كان دأبها في ليال خَلَت. ولم توْرقها الرؤى ولا الأشباح الوهمية. بل نامت هادئة. واستيقظت ممتلئة بالسلام الروحي. إذ أنها رأت روح ابنها. وعلِمت أن الولد الذي أفرطت في حبّه كما في البكاء عليه، لم ينسَ أمه المسكينة. وأحسّت أن طفلها الذي وهبته مشاعرها ذهب ليتحد مع أرواح ملائكة أشد حنّواً».

ما الذي تقوله هذه الكلمات؟ إذا سألت العِلم، جاءت

Twitter: @ketab_n

الإجابة أن الأمـر يتعلق بظاهرة بسيطة. ويقترح أن بعض الغازات التي تنجم من تحلّل الأجساد تسرّبت من جوف المقبرة. واشتعلت عند ملامستها الهواء، مما أطلق العنان لهلوسات بصرية عند الأم المسكينة المضطربة المشاعر أصلاً. وهذا تفسير صحيح وصائب. ولكن ماذا عن تلك الأم؟ هل تريحها الهلوسات أم التفسير العلمي البارد الذي يتركها في قبضة الأسى والحزن؟

لنأخذ مثالاً آخر:

تحـوم فـوق مرتفعات «أمبـوتـو» غيوم ثقيلة قاتمة تنذر بالعواصف. وعند رؤيتها، يهرع الصيّادون إلى المرفأ. ويعود عمّال الحقول والمسافرون والرُعاة مذعورين إلى مآويهم. وتتمتِم شفاه هؤلاء جميعاً صلاة غريبة سيّدة أمبوتو! سيّدة أمبوتو!

من هي تلك السيّدة؟ إنها الروح الهائمة لامـرأة محرومة من الإيمان والضمير. لقد ضحّت على مذبح طموحها بحبها كزوجة، وكابنة أيضاً، وحتى بأملها الأخير في الخلاص. ثم ارتكبت الجريمة الأشنع والأعظم، إذ أزهقت روحها بأن رمت نفسها إلى هاوية سحيقة. وفي جزاء عادل لآثامها، وجدت نفسها محكومة بالعويل والطواف إلى الأبد فوق هضاب «أمبوتو». ويُنظر إلى ظهورها دوماً باعتباره نذيراً بكوارث كبرى. إذ تُرسم

Twitter: @ketab_n

آثار قدميها بالدم والدموع. وكالطيور المفترسة التي تجتذبها رائحة الدم، تُنبئ سيدة «أمبوتو» باقتراب ساعة الشقاء. وتترك طرائدها أسيرة الدموع والنحيب.

في المقابل، يخيّم ضباب أبيض مُحبّب فوق هضاب «موريموندي». وسرعان ما يتبدّد مثل بخار ناعم. إذا تنبّه شخص ما لظهور ذلك الضباب، فسرعان ما يمتلئ قلبه بالحبور. ويُحيّي السيّدة التي تأتي لتُبشر بأنها ستساعد على تجاوز المصاعب الراهنة. لقد أتت السيّدة الرائعة! لقد أتت السيّدة الرائعة! هكذا تمتدح الشفاه تلك العذراء التي ضَحّت بمشاعرها وسعادتها وحياتها، من أجل والدها العجوز. وأنهت أيامها الأخيرة في صلوات متّصلة فوق جبال «موريموندي».

تسبق روح الفتاة الفخورة ظهور غيوم سود تُنذر بالكوارث. ويعلن ظهور الغمام الأبيض كالروح النقية لتلك العذراء، الأمل والسلام. تجسّد سيدة «أمبوتو» الطموح والجحود والجريمة. وترتع روحها في حمأة مقيتة. وتُقابل باللعنات. وتُمثّل روح سيدة «موريموندي» نكران الذات والفضيلة والبراءة. وتعيش وسط تبريكات دائمة من قلوب الناس».

لا شك في أن ذلك كله مستغرب وخيالي. ولكنه شَكّل

Twitter: @ketab_n

بالنسبة إلى عشرين جيلاً من الباسكيين، دروساً أخلاقية عظيمة، مكتوبة بالغيوم فوق الهضاب الشاهقة في «أمبوتو» و«موريموندي». وينطبق الوصف عينه على التقاليد المحفوظة، التي تحتوي دوماً على مثال أخلاقي أو تعلّق ببيوت الأسلاف أو شغف بجبال الباسك. وبمعنى آخر، إنها تلاقي ثلاث فضائل إنسانية أساسية: حب الرب والعائلة والوطن. وقبل عشرين قرناً، أُعجب الرومان بتوافر تلك الفضائل لدى سكان الباسك. ولقد ميّزت تلك الفضائل العِرق الباسكي على مرّ العصور. وستظل شعلتها متّقدة لدى الأجيال الآتية، على الرغم من أنها فقدت الكثير من حماسة الآباء لها، لسوء الحظ.

ويصعب الشك في أن تلك الخرافات الشعبية لعبت دوراً كبيراً في الحفاظ على الخصائص المميّزة لشعب الباسك الذي يتفرّد باستمرارية عزّت على كثير من الأعراق القديمة. ولقد حفِظت لغته وتقاليده ومعتقداته وروحه التي تألقت لتُميّز الباسكيين بين شعوب إمبراطوريات غنيّة. واستمر شعب الباسك. وذَوَتْ تلك الإمبراطوريات، واختفى ذكرها من ذاكرة الشعوب.

لندندن الآن أغنية هنيبعل التي أنشدها الأجداد قبل ثلاثين قرناً. فلنغن أنشودة ليكوفيدس التي ظهرت في حقبة الإمبراطور

Twitter: @ketab_n

الروماني أغسطس أوكتافيوس، أو أغنية ألتابيسكار التي ترجع إلى أيام شارلمان.

يستطيع الرعاة في أيامنا أن يفهموا تلك الأناشيد وكأنها كتبت لهم. في المقابل، ما الذي يُفهم اليوم من موروثات مثل مُغنّاة سكالدوس، قصيدة نيبلنغ، وأغنيات أوسيان والترانيم الأرمنية؟ لا يتواصل مع هذا الإرث سوى حفنة ممن كرّسوا أعمارهم لدراسة اللغات المنقرضة. ويدلّ ذلك على أن الموروث الباسكي حفظ اللغة بمقدار ما حافظ على الروح التي ميّزت ذلك العِرق في حينه أيضاً، مما أدى إلى استمراريتها. ويعيش شعب الباسك راهناً ويحكم على الأشياء بالروح نفسها التي سادت في أيام عزّه.

فبأي وسيلة أخرى سوى التقاليد المروية، نستطيع معرفة أسماء القادة الأبطال الذين قادوا المحاربين إلى أمجاد هزّت قلب روما القديمة، مثل ليكوفيدس وأوشاينس ولارتونس؟ ومن خلال أي تاريخ حُفِظَت سِيَر أبطال مجيدين من وزن هيرنيو وغوروتزيتا وأورو–فيوك وبيتزيد وغيرهم؟ أي نص أفضل من قصيدة «كانتو أوف ألوس» لينقل مشاعر الرهبة والحزن التي

Twitter: @ketab_n

سادت أثناء جنازة غويلا؟

إذن، من المستطاع القول عن حق، بأن الأمة التي تجمع العدد الأكبر من التقاليد والأناشيد القصصية والخرافات الشعبية، تملك التاريخ الأكثر اكتمالاً.

وللسبب عينه، نال هذا الموروث حظّه من المتابعة، بدأب وكفاءة، في ألمانيا. وكذلك اتّصلت دراسته في فرنسا مع الروح الوطنية.

لقد نال جمع موروث الخرافات اهتمام أمتين عظيمتين (أي فرنسا وألمانيا) تحتلان مرتبة متقدمة في الحركة الأدبية عالمياً، كما تملكان تواريخ متعددة وجميلة كُتبت بأيدي نخب ثقافية لها باع طويل في النقد الفلسفي أيضاً. فكيف تكون حظوة ذلك الموروث عينه عند شعب الباسك، خاصة أنه لا يملك مدوّنات متسلسلة زمنياً ولا سجلات ولا وثائق مكتوبة ولا أياً من العناصر اللازمة لكتابة التاريخ بدقة.

في حال كتلك، لا يبقى للتاريخ سوى طريق وحيد: ذاكرة الشعب. يتوجب الإسراع في جمع المتناثر. ولربما يأتي اليوم الذي يظهر فيه عبقري يستطيع تجميع الموروث كله. وفي حينه،

Twitter: @ketab_n

يصل عمل، كالذي شرعت في إطلاع القرّاء باللغة الإنجليزية عليه، إلى الاكتمال. ولا يقتصر ما جمعته على موروث الباسك من الخرافات، بل يتضمن موروثاً مُشابهاً من مقاطعات إسبانية أخرى. لنسرع في ذلك العمل إلى الحدّ الأقصى، إذ يبدو أن الآلهة شرعت في الرحيل. فبأثر من سوء حظ لا يُمكن رَدّه، يعاني هذا الشعب في أعماقه، من تحوّل عميق ومضن.

إذ تتصارع المساواة والروح العملية اللتان تسودان العصور الحديثة، مع الخرافات التي عاشها الشعب طويلاً ومع أحاسيسه السامية وتقاليده الأبوية. ويعاني الشعب إذ يعي ندرة مخزونه من المعتقدات، من إحساس مُحزن بالمهانة لأنه بات يستشعر فجاجته وجهله. ولعله من المُحزن القول إن أبسط المزارعين صار يحسّ بالخجل راهناً عندما يروي تلك الحكايات التي استمع إليها ذات مرّة بحماسة عارمة وبتصديق مُضمَر. وإذا طلب منه أحدهم أن يروي ما يحفظه من حكايات، فإنه ينظر إليه بارتياب خشية أن تكون لدى السائل نية السخرية من سذاجة ما سيُروى.

في المقابل، لا تعني الحماسة لمرويات الماضي إنكار الفوائد العارمة التي حازتها الإنسانية من المعرفة والتقدّم المعاصرين. ولكن، عند هذه النقطة بالذات، لنتوحد للحظة مع أفكار شعب

Twitter: @ketab_n

الباسك. ولنسأل أنفسنا بأي أفكار ومشاعر يمكننا أن نملأ تلك المساحة من تاريخه، إن مزّقنا المعتقدات والتقاليد والأفكار والعادات وازدريناها، خاصة أنها ساهمت في ازدهار الشعب على مدى عشرين قرناً، وأعطته طابعه العرقي المميّز. وبقول آخر، يوفّر موروث شعب الباسك ذلك الانسجام الساحر الذي يوحّد الغرائز الأشد مسالمة مع البسالة البطولية عند الخطر، ويوائم بين الانقياد التلقائي للسلطة والروح المتوثّبة للحرية، ويقيم الانسجام بين البساطة والتشوّق للعظمة التي يتضمنها ذلك الموروث عينه.

ويصعب عدم الإقرار بحقيقة أن الباسكيين، خاصة الأجيال الصاعدة منهم، ما عادوا مشدودين إلى المنزل العائلي ولا إلى الموطن، على غرار ما كانت عليه الأجيال السابقة. ولم تعد تقاليد الأجداد ولا مروياتهم لتشفي غليل حاضرهم. ولذا، بات من الأهمية بمكان الإسراع في جمع تلك الخرافات من جيل يختفي بسرعة. وإذا اخترنا الانتظار بديلاً، فلربما فقدنا آخر آثار ذلك الموروث. لقد فُقِد الكثير منه بالفعل، وتلاشى معه الكثير من كنوز تاريخ بلدنا الحبيب.

ولأنه ليس ثمة شفاء لهذا الداء، فلنُعالج أمره بالمسارعة

Twitter: @ketab_n

إلى جمع شتات الحكايات وبقاياها. ولنحفظها بجلال لائق، لأنها تمثّل آثار عظمة الأجداد وفضائلهم ومعتقداتهم. فمن الحقائق المسلّم بها أن الشعوب الجبلية تميل إلى الاعتقاد بالغيبي والسحري. ربما يأتي ذلك من المعايشة اليومية لطبيعة تعبّر عن نفسها بجمال وعظمة، مما يحفّز خيال قاطنيها البسطاء للانطلاق صوب السحري. وينطبق هذا الوصف على المفازات الجبلية القاسية لمجرى نهر «الراين» حيث تنتثر قلاع الإقطاعيين، وجبال اسكتلندا وبحيراتها، والصخور الجرداء التي تظهر في جزر «إبرايد» الاسكتلندية أيضاً، والممرات الكبيرة والقاسية لأرض إرن[1] الخضراء. تلهج الألسن في بعض تلك المناطق بقصص عن الأشباح أو الأقزام الخرافية التي تحرس كنوزاً دفينة في باطن الأرض. ويروى بعضها الآخر حكايات عن سيدات بيض يركبن جياداً مطهمة. وتروي بعض الشفاه خرافة عن «الباريّ» الذي يُفترض أنه تحدّر من نسل إبليس، وعن سراب كائن المستنقعات المتوهّج. وتتشارك تلك المناطق كلها بأنها تعتقد بوجود أعداد لا تحصى من الكائنات الغامضة، وتُشاهد رقصات تلك الكائنات، وتُسمع صرخاتها، وتُرى ألعابها، وتظهر مواكب عرباتها الجوية. ولا تحدث تلك المشهديات إلا

(1) في الأساطير الآيرلندية هو اسم آيرلندا الذي منحتها لها إحدى الآلهة (م).

Twitter: @ketab_n

في ضوء قمر شاحب، أو في الضباب، أو عندما يزبد شلال أو يزمجر إعصار أو في مجرى جبلي لنهر متدفق. وكأنما تؤلف عناصر الطبيعة ستارة شفيفة تُظلّل أفاعيل كائنات السحر الغامضة.

وعندما يعبر زائر مستنير عقلانياً تلك المناطق المضيافة بطبيعتها، فسيحظى بفرصة للاستماع إلى قصص شتى عن تلك الكائنات. وإذ يستقبل كفرد من العائلة، يتوجب عليه أن ينصت باهتمام إلى ما يروى له.

وأما إذا أبدى ملاحظة تحمل ظلاً من الشك، فسينهض الجمع ضده فورياً، ليس بدافع من سوء الضيافة بل لأن تشكيكه يحمل لهم الكثير من المهانة. إذ يُفهم كانتقاصٍ من قيمة تلك المناطق التي تعتبر نفسها مسرحاً للكائنات السحرية الغامضة. صحيح أنه من غير المستطاع إثبات الوجود المادي لكائنات السحر والخرافة، فذلك من صلب طبيعتها. في المقابل، ينتظم عيش هؤلاء الناس وحياتهم الرتيبة، بأثر من التدخّل المستمر لتلك الكائنات. ولإقناع الزائر بصحة المرويّات، يتبرع راعٍ مُسن بالقول إنه استيقظ ذات صباح مستشعراً القُبَل الخفيفة لكائن مستنقعات أبيض متوهّج، حمله من سريره القشّ في كوخه الجبلي ليوصله إلى أجمة خضراء. ثمّ راقَصَه هناك. ودار

Twitter: @ketab_n

بجسده دورات لم تخل من الخشونة. ويُضيف العجوز أنه يتذكر رؤية السيّدة البيضاء في شبابه، وقد نَزَلَت من قلعة جبلية مجاورة. ثم عبرت الغابة، حاملة صقراً على معصمها. وحفّ بها موكب من فرسان وحملة أبواق. وركضت أمام مركبتها كلاب صيد مدرّبة.

وبعد تلك التوكيدات الحاسمة، تأتي قصص الزوجة العجوز. وتروي أنها شاهدت بأم عينيها عفريتاً صغيراً عمد إلى نثر الملح على الأرض، وتقليب الأوعية والأباريق. وبلغ من الشيطنة حدّ أنه ربط سجادة بالية إلى ذيل قطة الدار المُحبّبة.

وبالنسبة إليهم، يُفترض أن تؤدي تلك الشواهد غير القابلة للدحض، إلى أن يُسلّم الزائر بحقيقة وجود الأشباح والبارِيّ والسيدات البيض وكائن المستنقعات المتوهّج. وعندها يستعيد الزائر حسن ظن مضيفه به.

وأميل للقول إنه من الأفضل أن نترك هؤلاء القوم الطيبين لكي يحيوا بسلام مع معتقداتهم الغيبية، التي لا تُؤذي أحداً. وليُعط الزمن فرصة أن يكشف الحقائق لهم. وأُفضّل ذلك على أن نرسم أنفسنا على هيئة مصلحين، إذ نحاول اقتلاع تلك المعتقدات البسيطة من أذهانهم. وأكثر من ذلك، تدّل التجربة

Twitter: @ketab_n

إلى أن الشعوب التي تدفعها بساطتها للإيمان بهذه الخرافات، تكون أكثر كرماً وفضيلةً ومُسالمةً وصِدقاً. وكذلك تتقبّل النهوض بالواجبات الدينية بسهولة. وتحترم القوانين التي تسنّها الحكومات. والحق أن تلك المعتقدات البسيطة تمهّد لقبول معتقدات أخرى أكثر أهمية وأعلى شأناً.

وإني لأذهب خطوة أبعد من ذلك للسؤال عن الكيفية التي يمضون فيها ليالي الشتاء الطويلة، إن حرموا من تلك الحكايات الساحرة التي يروونها عند اجتماعهم بسلام حول نار الموقد في ظل علاقات ودودة؟ أليست زاد خيالهم وملاذهم بعد يوم من العمل الشاق في الحقول؟

لنتذكر أنهم ينعمون بالدعة والسعادة في أثناء استماعهم إلى تلك القصص والحكايات الخرافية. فلماذا نسمّم بشكوكنا السعادة التي يهنأ بها أولئك الناس؟ تضمّ الأراضي التي تشكل مقاطعات الباسك، جبالاً كتلك التي تتوافر في اسكتلندا، وتلالاً تشبه ما تحتويه آيرلندا، وشواطئ قاحلة وقاسية كتلك التي تضمها جزر «إبرايد» الاسكتلندية. وتُشكّل تلك المقاطعات موطناً لشعب يحوز خيالاً جامحاً، إذ خلق كائنات سحرية مثل

Twitter: @ketab_n

الـ «لاميا» الذين يقطنون السواحل المضطربة، والـ «باسا-خوانا»[1] (أو الـ «خوانا») الذين يعيشون في الحقول المترامية، والـ «ماليغاري» من قاطني الغابات السخيّة، والـ «سورغوينا» الذين يملأون السهوب الموحشة والمفازات التي شقّتها السيول المنثالة من الجبال.

وأرى أنه من البديهي أن يهتم الناس في إنجلترا بالحكايات والخرافات التي تأتيهم من شعب متفرّد، يحوز لغة مميّزة وأصيلة وساحرة. ويتغذى الخيال الخلاّق لذلك الشعب من شغفه بجباله، وإيمانه العميق، وتقاليده الأبوية، وتقدّمه غير العادي، وفضائله البيّنة، وقدرته المذهلة على تدبير شؤونه وإدارتها. وأعتقد أن الإنجليز اشتهروا باستعدادهم للاعتراف بفضائل الأمم الأخرى وكبريائها، مما يجعلهم يهتمون بالحكايات الخرافية الشعبية للباسك.

(1) «باسا-خوانا»: تعني حرفياً سيد الغابات. ويصوره الخيال الأسطوري لشعب الباسك كوحش مريع له هيئة إنسان، لكنه مكسو بالشعر، وله أظافر طويلة وقوية كتلك التي للدببة البرية. ويفترض أنه يعيش في أعمق نقطة من الغابة. ويظهر أحياناً عند مداخل الكهوف ومنابع الأنهار. وأورد م. ميتشل تفاصيل مذهلة الغرابة عن الاعتقادات الشعبية حول هذا الوحش في كتابه «بلاد الباسك» (المؤلفة).

Twitter: @ketab_n

خوان زوريا: أمير إيرن

١

اكتظّت أروقة قصر «تيمورا» مقر ملوك إيرن، بالفرسان المُهابين الذين ينسدل على أكتافهم الزرد. وأنشد الشعراء، بمصاحبة القيثارات الذهبية، الأفعال المجيدة للشجاع مورنا حاكم «جزر الإيمرالد» (ويعني اسمها «جزر الزُمرّد») المحوطة بالموج الأزرق. ثم أُسكتت قيثارات المنشدين. وارتصف الجُند في صفين طويلين. وفُتِحت أبواب القصر. وظهر الشيخ مورنا محاطاً بولديه ليمور وأرمين.

وتجمهر الناس لمشاهدة مليكهم، وللترحيب به بهتافات تعبّر عن حبهم العميق، لأن مورانا هو الطيّب الذي يحبه الجميع، كما يعني اسمه في اللغة السائدة في تلك الجزر الخضر. وكسا الشيب شعر الملك وذقنه. ولم تستطع ثلوج سبعين شتاء أن تثني ساقيه القويتين اللتين اكتسبتا صلابتهما بالعمل والحياة المتيقظة. وكذلك رحّب الشعب المُحِب بالأميرين المصاحبين للشيخ اللذين

Twitter: @ketab_n

ينضحان بجمال الروح والجسد. كان وجه ليمور مشرقاً يسرّ الناظر إليه، كأنه الثلج الذي يُكلّل قمم جبال «كارمورا»، وحاز شعراً أشقر كالذهب، وعينين زرقاوين كزهر الكتّان. وغادروا «تيمورا». وتبعهم الفرسان، وتبريكات النساء. ولاحقتهم عيون الشيوخ والأطفال لحين اختفائهم في غابات «لينا». لكنهم ليسوا بذاهبين إلى الحرب، ولم تودعهم النساء بالبكاء. وتمثّل عدوهم في الخنزير البري ذي الناب الطويلة والجلد القاسي، الذي يسعون لصيده في غابات «لينا». وإذ توغلوا في الغابات الفسيحة، أعلنت الكلاب بنباحها وجود الوحش الضخم. فسلك الملك طريقاً. وسار ليمور وأرتين في أخرى. وأشارت أبواق الحرس إلى ظهور الوحش، الذي ركض وركض واكتسح في جريه المهيب كل كلب اعترضه. وردّ جلده السميك السهام التي انهالت عليه.

ونأى ليمور بنفسه عن أخيه، كما فعل مع أبيه قبلاً. وانقضت ساعة لم يتمكن خلالها الحرس المُنهك من العثور على الوحش، على رغم تفتيشه الدقيق في الغابة. وإذ أعلن البوق لليمور أن الوحش متجه صوبه، جهّز النبيل قوسه. وتمايلت العيدان القريبة منه. وظهر الرأس الضخم للوحش. وسدّد ليمور السهم، فاخترق الهواء.

Twitter: @ketab_n

وسُمعت صرخة ألم. وهرع ليمور ليُمسك بالوحش، فلم يجده في المكان حيث أصابه السهم. وسُمعت صرخة ألم من مكان آخر. فتقدم ليمور وأزاح العيدان والأعشاب البرية المتشابكة التي تفصله عن مصدر الصرخة المتألّمة. وندّت عن قلبه صرخة حزن إذ رأى أباه، ملك الجُزر المحبوب والذي لا يحبه أحد قدر ليمور، وقد رقد قريباً من الموت.

وإذا بالسهم الذي اخترق صدر الملك المحبوب هو الذي انطلق من قوس ليمور. والتمس ليمور المعونة لأبيه. وناشد الابن السماء أن تُبقي على الملك الذي طالما قدّم أفعالاً خيّرة. وتسربت الحياة من جسد الملك. وبكى الابن عجزه عن مساعدة أبيه. وامتلأت روحه باليأس.

Twitter: @ketab_n

٢

وعاد إلى قصر «تيمورا» أمراء «جزر الزمرد» والمحاربين الذين كانوا بصحبتهما في غابات «لينا». واستقبلهم المنشدون، إذ لمحوا الجمع عائداً، من دون أن تتدفق الألحان من قيثاراتهم الذهبية. ولم يقرضوا شعراً لتمجيد الصيّادين. وران الصمت والحزن على المنشدين والصيّادين. وعندما عُرف سبب هذا الصمت، أطلق الشيوخ والأطفال والنساء صرخات الأسى واللوعة. وعاد ليمور المحبوب جثة هامدة، محمولاً بأيدي الجند على محفة من خشب السرو. وبدا ليمور وأرمين وكأنهما على وشك الموت حزناً. وفي اليوم التالي، اجتمع في قصر «ليمور»، قادة قبائل «إيرن». وبعد اجتماع طويل، ذهبوا لرؤية ليمور، وريث السيادة على «جزر الزمرد». وخاطبه كبيرهم قائلاً: «أيها الأمير! على رغم أن قوانيننا تقضي بقتل قاتل أبيه، إلا أنك لن تموت. وإذ أصاب سهمك قلب أبيك، فإنك لم تتعمده. وفي المقابل، لا يوضع تاج على جبهة من تلطّخ بدم أبيه، وكذلك

Twitter: @ketab_n

لا يقيم بيننا. وإذن، ليوضع التاج نقياً على جبهة أرمين. وفي الصباح، ينتظرك مركب في الميناء، مع مؤنة ورجال. ولتُغادر جزرنا إلى الأبـد. ولتحمك السماء، حيثما حملتك الريح والأمواج».

وتقبّل ليمور قرار قادة القبائل. وأسلم نفسه لرحمة الريح والأمواج. ولم يجد صحبة أفضل من حزنه. ووضع ثقته بالسماء التي تعرف براءته. واصطحب اثنين من خدمه المخلصين الذين رغبوا في مقاسمته أحزانه. ومن دون قيادة بحّار متمرس، تخبّط المركب على غير هدى أياماً وليال وحتى شهوراً، في الأرجاء القصيّة لمياه المحيط التي لا حدود لها. وتلاعبت به الأمواج الهادرة والرياح التي لا ترحم. وأخذ الظمأ يضرب ليمور وخادميه. ولم يجدوا ماء ليطفئوا عطشهم ولا حتى ليبللوا شفاههم المتيبسة، سوى مياه البحر المالحة. وانطفأ آخر شعاع أمل بالعثور على اليابسة، وبالوصول إلى أي بلد. وعندها، لاح لأعينهم من خلال ضباب البحر، شاطئ خلفه جبال خضر. ووجّهوا مركبهم صوب الأرض المباركة. ولم تكن سوى موطن الـ «كانتابرا»[1]، وهم جنس من العمالقة، لم تتمكن روما، ملكة

(4) الـ «كانتابرا»: شعب من «هيسبانا تاراكونيزا» الذي يقطن بين جبال الـ «بيرينيه» والمحيط، فيشغل مناطق «نافار» و«بيسكاي» و«ألافا» و«غوبيزاكو» (المؤلفة).

Twitter: @ketab_n

العالم، من قهرهم على رغم قوتها.

واقترب المركب من الشاطئ. كانت الأرض التي رأوها أمامهم جميلة. وهلّل الأمير وتابعوه بفرح لقارة أكثر جمالاً من «جزر الزمرد». وقفز المنفيون من مركبهم، مُطلقين صيحات الفرح. فتحت الأوراق الوارفة لشجرة كستناء، رأوا نبعاً تتلألأ مياه مثل سقوف الكريستال في «دروماناز». وأطفأت المياه النقية لهيب العطش الذي يلتهمهم. وهدأت نفوسهم. وقرّوا عيناً. وسرعان ما ناموا.

Twitter: @ketab_n

٣

أين يذهب إيشكو-خوانا[1] الذي يقطن «بوستونا»، بعد أن يهجر حقوله ويصل إلى الشواطئ المهجورة في «موناداكا» يتبعه أولئك الذين كانوا يساعدونه في عمله؟ إلى أين يمضي إيشكو-خوانا مُسرعاً؟

فمن قمة الجبال رأى مركباً صغيراً قذف به البحر دافعاً إياه إلى الصخور. وبقلب مليء بالتعاطف والضيافة، يهرع إلى الشاطئ، حيث يفترض أن النجاة يصارعون الموت.

وحين وصل إلى السهل، توقف، وكذلك فعل الذين ساروا معه. ورأوا ثلاثة غرباء نائمين عند النبع، تحت شجرة الكستناء. ولبث إيشكو-خوانا لحراسة النائمين. واستيقظ أبناء «جزر الزمرد». وسألوا إيشكو-خوانا عن الأرض التي أوصلتهم إليها الرياح والأمواج. وعندما علموا أنهم في أراضي الـ «كانتابرا»

(1) «إيشكو-خوانا»: رب المنزل أو مالكه (المؤلفة).

Twitter: @ketab_n

القاهرين، رفعوا شفاههم إلى السماء شاكرين إياها لأنها قادتهم إلى الأبطال المقدمين في الكون.

وتحت سماء «بوستونا»، وجد المنفيون من «إيرن» ملجأً مضيافاً. وسرعان ما طارت الأنباء عبر جبال «إسكارا»، التي يعيش فيها سليل الملوك، العجوز ليكوبايد، قائد قبيلة «إسكالدوناك[1]».

وعلم بأمرهم ذلك القائد الذي تصغر أمام أفعاله أمجاد الأباطرة، والذي يمدحه الباسكيون في أغانيهم. فأرسل مبعوثين إلى أمير «إيرن»، يعرض عليه استضافته في وادي «بادورا».

تأمل ليمور بفرح وسعادة الأراضي التي يقطنها القائد الباسكي. وطوّقت هالة من مجد هامة ليكوبايد النبيلة. وظلّل الجمال والعفة جبهة ليز ابنة قائد قبيلة «إسكالدوناك». مرت شهور على إقامة ليمور في منزل ليكوبايد. وانقضت شهور على محاولته مغادرة وادي «بادورا». إذ خجل، كفارس ومسيحي ورع، أن يعيش في خمول، بينما يدوس أبناء «أجار»، خلف

(1) «إسكالدوناك»: يكتبها بعضهم «إسكولدوناك» المشتقة من «إسكو» (اليد) و«ألد» (اليمين) و«دوناك» (الذين يملكون). ويطلق أهالي «بيسكاي» أو الباسك هذا الاسم على أنفسهم. ويتحوّل في اللهجة المحكية الى «الإسكاريين». ويذكر الكاتب الألماني هامبولت أنها اللهجة الأكثر غنى التي عرفها في حياته (المؤلفة).

Twitter: @ketab_n

جبال الـ «إيبرو»، على الصليب المقدّس. وكم ودّ أن يتطوع في صفوف فرنان غونزاليز، كونت «كاستيل»، وردعته رجاءات ليز وليكوبايد. وأكثر من ذلك، احتجزته قوة غامضة تملّكت شغاف قلبه. وهوّن الأمر عليه التدريبات شبه الحربية ورحلات الصيد.

وعندما يغادر وادي «بادورا»، يغذّ الخطى باتجاه الجبال الشاهقة التي تشرف على الوادي، متصيداً الأيل والخنزير البري. وتقف ليز بالنافذة مراقبة الغريب من الوادي. ويعود الغريب ساعياً لرؤية ليز عند النافذة.

طُبِعَ الـ «إسكالدوناك» على العيش أحراراً كنسيم الجبال وعصافيرها.

لم يتخذوا سيّداً ينقادون له كالقطيع.

ولم ينصاعوا لقوانين غير تلك المحفورة في وعي قادتهم. ويحسم القادة المنازعات بعدالة، تحت ظل شجرة الـ«غورنيكا» المباركة. وتنبع الهرمية بينهم من الفضيلة والذكاء والشجاعة. وبعد تلك الأمور، يختار الـ «إسكالدوناك» قائداً مستعداً لأن يمضي بهم إلى الحرب، إذا جاوز معتد حدود أراضيهم الحُرّة.

Twitter: @ketab_n

ووضع هؤلاء القوم ثقتهم بليكوباید لأكثر من نصف قرن، بالنظر إلى التزامه الفضيلة، ولشجاعته ولذكائه ولمحتدّه النبيل. وذات يوم، لدى اجتماع كبارهم تحت شجرة الـ «غورنيكا»، لاحظ أحدهم أن ليكوباید عجوز وعقيم، وبالتالي لا يقدر على قيادة جيوش الـ «إسكالدوناك»، إذا غزا معتد أرضهم. ثم تحدّث أحدهم ينيف عمره عن المائة عام، فقال: «دأب «ليالا»، الكلب الأكثر تنبّهاً في جبالنا، على الحراسة لمدة خمس عشرة سنة، مرابطاً ليلاً ونهاراً على باب سيّده. وذات يوم، قال أحد إيشكو-خوانا إن «ليالا» عجوز. وفي الليل، وُضع كلب آخر في الموضع الذي حرسه «ليالا» طويلاً.

وفي تلك الليلة، جاء الذئب الذي أبعده «ليالا» خمس عشرة سنة لقدرته على تمييز رائحته عن بُعد. ولم يتنبه له الكلب اليافع. والتهم الذئب طيور الإيشكو-خوانا. وفي الصباح، مات الكلب «ليالا» كمداً وحزناً، بعد أن نام كلب آخر لليلة في السرير الخشن الذي رابط فيه خمس عشرة سنة لحراسة سيّده، على رغم أن إيشكو-خوانا أعدوا له سريراً ليّناً وهانئاً وأكثر راحة من السرير الذي رابط فيه خمس عشرة سنة». بتلك الكلمات تحدث الأرستوقراطي ذو المئة سنة. ومنذ ذلك الحين، لم يُبْدِ أحد ملاحظة

Twitter: @ketab_n

بشأن تقدّم ليكوبايد في العمر. ونسي الأخير نفسه مسألة تقدّمه في العمر، لأن روحه الشابة لم تسمح له بالسؤال عن عمر ذراعه القوية. ولكن الأمر لم يدم! وسرت شائعة همساً. وحدث تململ غير مألوف منذ وقت طويل وانتشر في قرى الباسك وجبالها. وبقلب مستاء، خفّ الخطى كشّافة إلى باب ليكوبايد. وصرخوا «كيداريا»[1] . أيها القائد. ظهر جيش رهيب في ممر «أوردوننا». ولسوء حظ الـ «إسكالدوناك»، فإن صرخة النصر إيررنزي لن تُسمع قريباً في جبالنا. وانتفض ليكوبايد بالغضب العارم: «أطلقوا أبواق الثور الخمسة في جبال الباسك الخمسة. يجب ألا يتخطى «تري مالاتو» أياً من أولئك الذين تجاسروا على وطئ وطننا الحرّ. أعطوني معطف الزرد والرمح اللذين رافقاني في المعارك قبل سبعين سنة». ووضع ليكوبايد معطف الزرد بسرعة، فانحنى جسمه تحت ثقل حديده. وأمسك ليكوبايد بالرمح، لكن ذراعه عجز عن حمله. عندها، تذكّر القائد المجيد عمره، فارتجف. وتحت وطأة التواضع واليأس، سقط أمام باب بيته.

في تلك الأثناء، أُطلق نفير الحرب في جبال الباسك. وتلبية لندائه، هرع محاربون من الباسك الى وادي «بادورا»، متوقعين أن يسير بهم بطلهم المجيد الى المعركة.

(1) القائد (المؤلفة).

Twitter: @ketab_n

وفجأة، التمع خيط أمل على محيا ليكوبايد، بعد أن سيطر عليه القنوط.

«يا أمير إيرن»، صرخ الشيخ مُنادياً ابن مورنا «ارتدِ معطفي الزرد، واحمل رمحي. وخذ مكاني في قيادة فيالق الإسكاريين».

وردّ ليمور: «أيها السيّد. سأخوض المعارك ضد عدو أرضك التي لاقتني بضيافة كريمة. لكنني سأكون في صفوف الجند. وعليك أن تجد قائداً أكثر جدارة مني لقيادة مُحاربيك الى المعركة».

وضمّ المحاربون الذين هبطوا من جبال الباسك إلى وادي «بادورا» نداءاتهم إلى نداء ليكوبايد.

وأصرّ ليمور المتواضع على المضي إلى المعركة كمحارب بسيط في صفوف الجنود. «حتى آخر عمرك، ستظل قائداً وبطلاً للإسكالدوناك»، صرّح ليكوبايد بصدق كليّ. ولكن ليمور ظل على موقفه برفض المنصب النبيل الذي قُدّم له.

وصاح الأكبر سناً بين محاربي القرى العشرين الذين تجمعوا في وادي «بادورا»: «أنت سليل ملوك، وتستحق قيادة الفيالق. وستمنحك أرض إسكارا الحُرّة الحكم عليها، إذا وافقت على

Twitter: @ketab_n

قيادة جيوشنا». ورفض أمير الجزر الخضر أن يصبح حاكماً في بلاد الـ «إسكالدوناك». وفيما هذه المناقشات مُحتدّة، توافدت سيول الكشافة مُعلنة أن الأعداء تجاوزوا «تري مالاتو»، وشرعوا في هبوط المنحدرات، كبحر طام، مكتسحين كل من وقف ليقاومهم.

وصرخ ليكوبايد: «أيها الأمير. أُقسم بحق دم الملوك الذي يسري في عروقي. قُدْ فيالق الإسكالدوناك إلى الحرب. أُطرد الغازي من أراضينا. وعند عودتك من الحرب، سأُجلسك في بيتي، وأتخذك ابناً لي».

ورمق ليمور ليز بنظرة حب وأمل. وقرأ على محياها الإجابة التي طالما تاقت روحه لسماعها. والتقط الرمح. وارتدى ثوب الزرد، قائلاً: «أيها الشيخ. فليقيّض لي الرب أن أجلس في دارك، وأن أسمع من شفتيك تسمية الابن».

Twitter: @ketab_n

٤

وسُمعت نفخات الأبواق القوية على الجبال الخمسة العالية في الأرضي الحُـرّة. وردت القرى والجبال على نفير الحرب بصرخة النصر إيررنزي. ونهض كل رجل يقدر على حمل سيف، أو رمي سهم، أو الضرب بالرمح أو الفأس. وتركوا منازلهم. وهرعوا إلى وادي «بادورا». وضاقت رحاب الوادي بالآلاف من الباسكيين الذين تجمعوا استجابة لنداء الوطن. ولم يصدر ذلك النداء عبثاً. فقد تجمّع الأعـداء من كل حدب وصوب. وجعلوا وجهتهم وادي «بادورا» ليتحدّوا القائد الذي يعلمون أنه مقيم فيه. لم تكن الجيوش التي غزت الباسك مكوّنة من فيالق «كاستيل» و«ليون» الشجاعة

ولم يقدهم ملوك «كاستيل» ولا كونتات «ليون». فقد تألف الغزاة من محاربين منحطي المستوى، طالما ألحقوا العار باسم المسيح من جبال «إيبرو» إلى شواطئ «تاغوس». وتولى قيادتهم أوردوننو الشرير، المُغتصب الحقير لتاج سانشو إل كراسو.

Twitter: @ketab_n

وقد أُزيح عن عرش ليون، فأراد أن يُغرق إخفاقه في الدم النبيل الـ «إسكالدوناك»، كي يرفع تاجه على جبال الباسك. وقاد جيوش الباسكيين خوان زوريا، وهو الاسم الذي أطلقه الشعب على أمير «إيرن». ولاقى الجيوش الغازية عند الجبال المشرفة على وادي «بـادورا». وترك سانشو الإستكويزي، لـورد «دورانـغـويـزادو»، قصره في «تـاريـزا». وقـاد جيش الدورانغويزادويين، الذين طالما تشوقوا للمحاربة إلى جانب أشقائهم، تحت قيادة الأمير. ودارت معركة شرسة تردّدت أصداؤها العاصفة في جبال «إسكار» التي سادها السلام لآجال طويلة قبل ذلك. وحجبت غيوم الرماح أشعة الشمس. ورَمَتْ الأذرع الهرقلية للباسكيين قطعاً ضخمة من الصخور على جيوش أوردوننو فبدّدتهم. وحطمت أجسادهم وأرعبتهم. وبالفأس والرمح والسيف، مزّق محاربو الباسك جيوش الغزاة، فتناثرت أشلاؤها على الصخور المتكسرة في وادي «بادورا». ودفع اليأس بأوردوننو لمجازفة أخيرة، بهدف إحياء معنويات جنوده، قبل أن يُحسم بشأن النصر.

فصرخ أوردوننو: «الموت لقائد الإسكالدوناك. وليكن النصر بعد ذلك، حليفنا». واندفع لقتال خوان زوريا الذي كان

Twitter: @ketab_n

في ذروة انشغاله بقيادة الجيوش وبإعطاء الأوامر.

وهرع ابن ملوك «إيرن» لقتال زعيم الغزاة الطموح. وخاضا قتالاً شرساً. واندفع رمح ليكوبايد، بقوة تشبه ما يحوزه العملاق الأسطوري «تايتانك»، لينغرس في صدر أوردوننو. وقضى الغازي مُطلقاً زمجرة يأس تردّدت أصداؤها في وادي «بادورا»، فكأنه أسد جريح. ولسوء الحظ، ضرب حجر من الأعداء جبهة لورد دورانغويزادو، الذي كان أمير «إيرن» ليفتديه بروحه. وانفكّت صفوف الغُزاة. وارتدوا على أعقابهم من حيث أتوا، مخلفين آثار دماء ونيران. ولاحقهم محاربو الـ«إسكالدوناك» إلى أن أخرجوهم من ممر «أوردوننو». وبعدها، أحسّوا بالتعب من شدة القتال. ولاح لهم وجه وطنهم حراً وسعيداً، مرة أخرى. فعادوا ليرتاحوا، وليحتفلوا بالنصر المجيد، تحت ظلال شجرة «تري مالاتو».

انقضت عشرة قرون منذ أن هزّت الفرحة الشعب القاطن في وادي «بادورا» وحقوله، بالنصر الذي حازه الـ«إسكالدوناك»، تحت قيادة منفيّ من «إيرن». وإذا أردت زيارة تلك الحقول، لا تبحث عن اسم «بـادورا» في الخريطة. فقد استُبدل باسم «أريغورياغا»، الذي يعني باللغة الغنيّة لجبال «إسكارا» الحجارة المُحمرة.

Twitter: @ketab_n

وجسّدت الحجارة الملتمعة في جبال «بادورا» القديمة لون الدم الذي انسكب من قطعان أوردوننو الشرير. ولهذا السبب، تغير اسم المنطقة من «بادورا» إلى «أريغورياغا». وإذا سِرت في الكنيسة الصغيرة في وادي «أريغورياغا»، فستعثر على مسافة من جرن ماء الصلاة، على قبر. وإذا سألت قروياً بسيطاً عمن يرقد فيه، فسيجيبك بأنه أمير يُدعى «أوردوننا» الذي سعى لسلب شعب الباسك حريته. ويخبرك أيضاً أن ذلك الأمير صُرع على يد خوان زوريا، البارون الأول على «بيسكاي». وبعد ذلك، تفَحّص الجسلات التي يعلوها الغبار في المعبد. وإذا قيض لك أن تفهم اللغة الأزلية والتي لم تتغيّر لشعب الـ «إسكالدوناك»، فستقرأ في الأوراق الصفر المتقادمة، التي ثقبها العثّ، أنه في هذه الكنيسة تزوّجت ابنة ليكوبايد بابن ملك «إيرن».

Twitter: @ketab_n

غصن الزنبق الأبيض

تقليد

I

في واد ضيق عميق، يسير نهر «كاداغووا»[1] الهادر قبل أن يفرغ نفسه في البحر الذي يفتح ذراعيه كأنه يلاقيه. ويمتد جسر فوق مجراه في الوادي. ويحمل الجسر اسم «كاستريانا». وقد شيده السيد بيدرو أورتيز دي ليكويشو، بين التاسع من يونيو 1435 والرابع من مايو 1436.

ووصلتنا هذه المعلومات المهمة عبر ملاحظات مُشبعة بحب الفضول، عُثِر عليها في العام 1730 ضمن أوراق كاهن من بلدة «بيلباو» يتّبع مذهب القديس أوغسطين. ومع ذلك، يُصر الأهالي على أن الـ «السيد» لم يفعل سوى أن نسب لنفسه عملاً من فعل الشيطان، الذي يرون أنه المهندس فعلياً لجسر «كاستريانا». ولسوف نروي القصة التالية بحسب ما نقلها إلينا أهالي بلدة

(1) كاداغووا: أكثر الأنهار اندفاعاً في الباسك، بعد نهر «إيبازابال». ينبع من أعلى نقطة في وادي «مينا»، الذي شكل قديماً قسماً من «بيسكاي»، وقد ألحق راهناً بـ «بورغوز». يسير عبر «إنكارناسيون» في «بيسكاي». ويلاقي «إيبازابال» على بُعد فرسخ من مدينة «بيلباو» (المؤلفة).

Twitter: @ketab_n

«إيروريغي» و«زوبليطا». ويؤكد هؤلاء أن الشيطان استاء من إقدام السيد بيدرو أورتيز دي ليكويشو على نسبة الجسر إليه، فدأب على تعريض من يستطيع الاستفراد به من الأهالي، إلى تعذيب بربري.

وفي العام 1485، ظهر على الضفة اليمنى من نهر «كاداغووا»، منزل جميل متواضع، تحيط به حديقة غنّاء تسوّرها أشجار فاكهة مثمرة. وتكوّنت الحديقة الخلفية للمنزل من حقل تفاح، امتدّ إلى قاعدة جبل «باغازاري». وفي منزل «كاستريانا»، وهو الاسم الذي أُطلِق على ذلك البيت، عاشت أرملة مع ابنتها كاتارينا ذات الثمانية عشرة ربيعاً. وكانت كاتارينا موضع فخر أهالي الوادي، كما خلبت لبّهم أيضاً. ومن «بورسيننا» إلى «ألونزوتيغي»، لم يبق أحد إلا وأحب فضائلها وأُعجب بجمالها. ولأن والدتها طعنت في السن، فإنها لم تعد قادرة على إنجاز الواجبات المنزلية كلها.

وببراعة، نهضت الابنة الجميلة بالمهام المنزلية، إضافة إلى العناية بالحديقة الواسعة والاهتمام بحقل التفاح ورعاية القطعان. وكذلك تولّت شؤون البيع والشراء في سوق «بيلباو» في ما يتعلق بالحليب والفواكه والخضار، التي كانت مصدر الرزق لمنزل «كاستريانا». وعملت كاتارينا بدأب وبفرح أيضاً. فتُدندن

Twitter: @ketab_n

الأغـاني أثناء ذهابها لجلب الماء من نبع قرب حقل الكستناء القريب من النهر. وتعود والغناء على شفتيها أيضاً.

وتذهب الى سوق «بيلباو»، مغنّية طـوال الطريق. كما تواصل الشدو بالأغاني خلال إيابها من السوق، لكنها تتوقف دوماً، لبضع لحظات، أثناء مرورها بمرج الكستناء في «ألتاميرا». ويرافقها الغناء أثناء عملها في الحديقة، وعند قطفها الفواكه من الأشجار المثمرة، وكذلك أثناء قيادتها القطعان لتشرب من ضفاف «باغازاري».

وعلى الضفة الأخرى من النهر، يشاهد منزل آل «إيتوريوز»، الذين تمتد أراضيهم حتى النبع القريب من حقل الكستناء. وقد أعطى النبع اسمه «فونت فريا»، ومعناه «النبع البارد»، لتلك الأراضي. وكلما ذهبت كاتارينا لجلب الماء من النبع، يشرع الشبان في أرضي «إيتوريوز» في التحادث معها بحيوية. ويهرع مارتينو، أكبرهم سناً، ليقدم لها أفضل ثمار تلك الأراضي. وقد أحب مارتينو وكاتارينا بعضهما بعضاً، منذ طفولتهما تقريباً.

وقرّر والديهما أخيراً، إتمام زواجهما في مايو، عقب الانتهاء من حصاد الذرة. والحق أن مارتينو قرّر مساعدة أبيه وإخوانه في ذلك، قبل أن ينتقل للعيش في منزل «كاستريانا».

Twitter: @ketab_n

٢

وفي ليلة مُدلهمّة عاصفة، قرع غريب باب منزل الأرملة. فحملت كاتارينا شمعة، وأزاحت فتحة صغيرة في الباب، لتسأل الغريب عن مبتغاه.

وأجاب الغريب الذي بدا، على ضوء الشمعة، شاباً يافعاً يرتدي بذلة سوداء: «جئت من بلدة بيلباو وأريد الذهاب إلى غالدميز. وقد ارتفعت مياه النهر وماجت. كما يحول الليل العاصف دون عبوري المفاز الجبلي الصخري الذي يتوجب علي عبوره في دربي. أرجوك أن تمنحيني مأوى لهذه الليلة، وفي الصباح الباكر، سأتابع رحلتي بأمان».

تشاورت كاتارينا مع أمها. ثم فتحت الباب للغريب، الذي كان شاباً يافعاً له وجه جذّاب وصوت عذب. وعلى رغم ذلك، ثمة شيء في صوته وسيمائه يُدمر كل جمال فيهما.

Twitter: @ketab_n

وأثار الإزعاج بعينيه البرّاقتين وابتسامته الثابتة وصوته المُنغّم الذي يُشدّد على مخارج الألفاظ. وفيما «دردشت» الأرملة مع الغريب، انهمكت الابنة في تحضير العشاء.

وعندما فرغ الغريب من عشائه، خاطبته الأرملة بالقول: «لم نتلُ صلواتنا الليلية. ولسوف نُسرّ بمشاركتنا إياها». وأظهر الشاب علامة عدم ارتياح، مُعلناً أنه منهك وأنه يُفضل الخلود إلى النوم، إذ يتوجب عليه النهوض باكراً.

أضاءت الأرملة شمعة. وشقّت الطريق إلى غرفة عملت مع ابنتها، على تجهيزها لينام الغريب فيها. ومن نافذة مفتوحة في تلك الغرفة، دخلت رائحة مُشبعة بعطر الزهور بعد المطر. وبينها، برز العطر المميّز للزنابق البيض، التي تنمو تحت النافذة مباشرة، بحيث تكاد تلامس ورودها إفريز النافذة.

ومع اقترابها من النافذة، قالت الأرملة لابنتها: «يا للرائحة الجميلة التي تضوع من الزنبق الأبيض!».

«عن أي زنبق أبيض تتحدثين»، سأل الغريب وقد ارتسمت على شفتيه علائم الاحتقار.

Twitter: @ketab_n

«إنه الزنبق الأبيض الذي تزرعه ابنتي كاتارينا كي تضع زهوره على مذبح سيّدة بيغوننا»[1].

ولاح على محيا الغريب تعبير وقح. وأدركت الأرملة أنه ليس بمزاج جيد للكلام. فأزجته تحية المساء. وأخلدت للنوم. وفي غرفة نوم الأرملة وابنتها نافذة تُشرف على الحديقة أيضاً، وتقع على الجهة عينها التي قامت فيها غرفة نوم الغريب. وقبل أن تغلق تلك النافذة، أخرجت كاتارينا رأسها قليلاً لتتنشق عبق العطر المتصاعد من زهور الحديقة. وكم فوجئت واستاءت عندما شاهدت الغريب يمد يده اليُمنى بخطّاف محاولاً الوصول إلى الزنابق، هادفاً كسر جذعها بوضوح.

سألت كاتارينا مُنبّهة أمها: «آه! ما الذي يحاول هذا الرجل فعله؟».

(1) بيغوننا»: تقع كنيسة «بيغوننا» قرب بلدة «بيلباو»، عند قمة «أرتاغان» التي تُشرف على البلدة. وتعتبر من أشهر المعابد في مقاطعات الباسك. شيّد المبنى الراهن في القرن السادس عشر، ولكن التعبّد للسيدة العذراء كان سارياً في تلك الأرجاء، إذ عُرفت فيها باسم «سيدة بيغوننا». وتتحدث التقاليد عن ظهور للسيدة العذراء في ذلك المكان، وعندما شرع الأهلون في تشييد الكنيسة، فكروا في أن يقيموها في رأس الجبل. وخرجوا في زياح لإيصال تمثال السيدة العذراء إلى القمة. لكنهم سرعان ما سمعوا صوتاً مجهولاً خافتاً يقول لهم «بيغوننا»، الكلمة التي تعني «توقفوا حيث أنتم». ومن هذا الصوت، ظهر اسم «بيغوننا» (المؤلفة).

Twitter: @ketab_n

«يبدو أنه شرير». وسُحِبَت اليد المزوّدة بخطّاف. وحينئذ، أخبرت الأرملة ابنتها بعدم الارتياح العارم الذي ظهر على وجه الغريب عندما علم أن الزنابق مخصصة للسيدة العذراء. وإذ خشيت كاتارينا من تدمير زنابقها البيض، انسلّت بهدوء إلى الحديقة. وقصّت غصن الزنابق البيض. وعادت إلى غرفتها وقد حملته بعناية، خشية أن يتعرض للكسر.

Twitter: @ketab_n

٣

هطل المطر طيلة الليل. وتوقّف صباحاً. استيقظ الغريب مُبكّراً، مُعلناً أنه سيحاول عبور النهر قبل أن ترتفع مياهه، فيتعذّر عليه عبورها. وتملّكت كاتارينا رغبة قوية في أن تسأله عن سبب محاولته تحطيم زنابقها الجميلة. لكنها لم تجرؤ على ذلك. وحمل صوت الغريب وملامحه ونظراته شيئاً مبهماً سكب في قلبها الرعب والخوف. ورَجَت الأم والابنة الغريب أن ينتظر دقائق كي تعدّا الفطور له. لكنه أصرّ على المغادرة فوراً. وسألهما إن كان يدين لهما بشيء لقاء العشاء والمبيت. وأجابته المرأتان: «لا تدين لنا بشيء، سوى حُسْن النية».

«حسناً، إذن. أنا شاكر لكما. وأتمنى لكما وافر الصحة». أجابهما الغريب. ثم غادرهما. وعبر نهر «كاداغووا» متنقلاً فوق صخور كبيرة وضعت في مجراه لتستخدم كجسر حينها، في الموضع عينه الذي سيظهر فيه الجسر لاحقاً.

Twitter: @ketab_n

ولم تكن في غير موضعها خشية الغريب من ارتفاع المياه إلى حدّ يستحيل عبور النهر معه. فقد شرعت الماء في الارتفاع أثناء عبوره النهر.

ومدّت كاتارينا بصرها من الجهة التي تطلّ على النهر. وتوزّع تركيزها بين المسافر المُسرع ليصل الى الدرب المُفضي الى «إيتوريوز» من جهة، ومارتينو من الجهة الأخرى. وانهمك الأخير في إصلاح السياج في الركن القصيّ من الحديقة، إذ خرّبه بعض الماعز الذي شقّ طريقاً للخروج إلى الحقل. وانتصب السياج على الجهة العالية من الطريق الذي يتوجب على الغريب أن يسلكه. وتوقّف المسافر المجهول ليتبادل بضع كلمات مع مارتينو. وحالت المسافة وهدير مياه النهر دون سماع كاتارينا لما قاله الغريب لمارتينو. ولكنها لاحظت أن الأخير أصبح غاضباً. ونظر صوب منزل «كاستريانا» بتكشيرة مُهدّدة. ولا نعلم هل أن كاتارينا سعت للحديث مع مارتينو أم أنها أحسّت بنقص المياه في المنزل. لكنها وضعت جرّة ماء على رأسها. وأخبرت أمها أنها تريد جلب الماء قبل أن ترتفع مياه النهر بحيث يصبح من المستحيل عبوره. وشرعت في ذلك فعلياً. ومع وصولها إلى ضفة النهر، لاحظت أن مياهه غطّت الحجارة الضخمة، متدافعة في تيارات مخيفة.

Twitter: @ketab_n

وبعد هنيهة، ثبتت كاتارينا سلّة خضار على رأسها، وحملت غصن زنابق بيض بيدها. وانحدرت إلى طريق «بيلباو»، كدأبها كل صباح، لتبيع بضاعتها في السوق. لكنها لم تَسِر بقلب منشرح، ولم تدندن الأغاني كعادتها، بل مشت صامتة حزينة.

عند عبورها «ألتاميرا»، خلال ذهابها وإيابها من «بيلباو»، كانت تتوقف عن الغناء، وتركع قرب شجرة الكستناء العملاقة حيث تلوح لناظريها كنيسة «بيغوننا». في ذلك اليوم، ركعت كالعادة، وصلّت بحرارة فاقت كل المرات السابقة، حتى إنها بكت خلال صلاتها. ما الذي تغيّر وأمسك بقلب كاتارينا المسكينة؟ لم تكن تدري، لكنها أحسّت بحزن عميق في قلبها، وكأنها مصيبة على وشك أن تحيق بها. ووصلت إلى سوق «بيلباو». وأخذت تبيع بضاعتها، وتراقب غصن الزنابق الذي يجب ألا يكسره أحد. وحاول كثيرون، ممن جذبهم سحر تلك الأزهار، أن يشتروا الغصن. وأجابتهم كاتارينا أنها لا تملك أن تبيع الغصن، إذ أنها لم تجلبه لتتاجر به، بل لتضعه على مذبح كنيسة «بيغوننا» كتقدمة للسيدة العذراء.

وعندما فرغت من البيع، ذهبت إلى الكنيسة. ووضعت أزهارها الجميلة على المذبح مُقدّمة إياه للعذراء. وعادت

Twitter: @ketab_n

عابرة جسر «إبيازابال» الذي كان الجسر الوحيد فوق النهر، والذي يُسمى اليوم جسر «القديس أنطوان». وسارت صوب «كاستريانا». وكانت مياه النهر قد ارتفعت، لأن المطر انهمر مدراراً في الصباح فوق «إنكارتاسيون» كلها. وجالت كاتارينا ببصرها مراراً على حقول آل «إيتوريوز» ومنزلهم، لكنها لم تر مارتينو.

وكم كانت دهشتها وخوفها عظيمين، إذ مالت الشمس إلى الاختفاء خلف الجبال، حين رأت الشاب ينزل المنحدر متجهاً إلى «باراكالدو»، المُشرفة على «زوبليتا» التي تقع على الضفة الأخرى من نهر «كاداغووا»، مزوّداً بالسلاح ولابساً معطف الزرد الذي يرتديه محاربو عصابتين مختلفتين في تلك الحقبة.

حملت العصابتان اسمي أونهاسينو وغامبوانو. ولم تحاولا مناوأة سادة «بيسكاي» و«إنكارتاسيون». وفي المقابل، دأبتا على العمل بلا هوادة ضد مقاطعات «كاستيل»، خصوصاً الأراضي الممتدة على طول جبال «إيبرو»، بين «بونتيلارا» و«فالديفيالسو» التي يحكمهما الـ «سلازاريين» والـ«فيلاسكاويين». وبثّتا أعوانهما في «بيسكاي» ليجنّدوا الرجال عبر إغرائهم بالمجد والشهرة، مقابل ثمن قد لا يكون سوى قبر بين الصخور.

Twitter: @ketab_n

وركضت كاتارينا صوب ضفة النهر، منتظرة وصول مارتينو الى الضفة الأخرى. ووصل مارتينو فعلياً. لكنه رمى بورقة مطوية ربطت إلى حجر، قذف بها فوق المياه باتجاه كاتارينا. وتابع سيره باتجاه منزل «إيتوريوز». وبسخط، قرأت كاتارينا السطور التالية التي خطّها مارتينو على الورقة. «سأموت قريباً في أرض بعيدة من هنا، مُحارباً أعداء السلازاريين، فذلك أفضل من موتي هنا مُصارعاً خيانتك وشهوتك للحب. وعند منتصف الليل، سأنضم إلى شبان آخرين عند شجرة الكستناء في أرض إيتوريوز. وسأذهب بصحبتهم إلى ضواحي كاستيل حيث أرجو أن يدفعني الموت أو الفراق، إلى نسيانك».

Twitter: @ketab_n

٤

قُرعت أجراس الكهنة في «بورسيننا» داعية الى الصلاة. وبكت كاتارينا بحرقة، لأنها أحسّت أن الوقت يمضي سريعاً لتأزف الساعة التي يغادر فيها مارتينو، ربما من دون أن يعود، فتُحرم من رؤيته إلى الأبد. وعبثاً جالت عيناها على سطح النهر مستطلعة الحجارة التي تستعمل جسراً. ولكن الأخيرة غابت تحت المياه التي تزايد حجمها وارتفاعها، كما عَلَت زمجرتها المخيفة.

وفي غمرة حزنها، صرخت: «أيتها العذراء المقدّسة، ما الذي فعلته، بحيث ثارت شكوك مارتينو ودفعه للذهاب إلى الحروب التي التهمت خيرة فرسان بيسكاي ومئات من شبابها؟ ثمة سوء تفاهم رهيب أو افتراء شنيع، أوصلنا إلى هذا الشقاء. تستطيع كلمة مني أن تذهب بالوهم عن مارتينو فتُثنيه عن قراره اليائس، لكني لا أستطيع الاقتراب منه أو حتى الحديث معه، لأن النهر يعترض طريقي، بمياهه المتوحشة. آه، أدفع حياتي مقابل عبور

Twitter: @ketab_n

هذا النهر وتياراته الغاضبة، قبل أن تُعلن أجراس «بورسيننا» حلول منتصف الليل، لتخبرني كل دقة في تلك الساعة أنه لم يعد في العالم مكان لسعادتنا أنا ومارتينو».

بمثل تلك الكلمات، حدّثت كاتارينا نفسها، إذ انخرطت في البكاء عند شجرة الكستناء، ناظرة إلى النهر وراجية أن تنحسر مياهه عن الصخور، التي طالما عبرت فوقها بسعادة، لتصل إلى منزل «إيتوريوز» وحقولهم، حيث الشاب مارتينو، الذي ، ويا للخيبة، لا يظهر كعادته مرتاداً لشواطئ النهر وساعياً لمبادلة حبيبته كاتارينا كلام الحب.

وفجأة، سمعت وقع خطى خلفها. والتفتت لتجد الغريب الغامض، الذي سألها وأمها المأوى والطعام في الليلة السابقة، يسير باتجاهها. والتمع في روح كاتارينا أمل متوحش، لأنه مرتكز إلى الغرابة. وقالت في سريرتها: «من هنا إلى أرانغوران، وهي حدود وادي سالسيدو، لا يوجد جسر. وعلى رغم ذلك، استطاع هذا الرجل عبور النهر من مسافة ليست ببعيدة من هنا. فلربما أطاحت العاصفة بعض الأشجار الباسقة، ورمت بها فوق النهر وعبر الرجل فوقها، كأنها جسر. إن كان الأمر كذلك، يستطيع هذا الرجل أن يدلّني. وحينها، أقدر على عبور النهر،

Twitter: @ketab_n

وأن أرى مارتينو في الوقت المناسب، فأمنعه من الذهاب إلى الحرب».

دارت تلك الأفكار كلها في ذهن كاتارينا، خلال هنيهة الدهشة التي أعقبت مفاجأة ظهور الرجل.

سألت الغريب باهتمام: «عند أي جزء من النهر عبرت؟».

وأجابها: «عبرته فوق جسر أرانغوران».

«كيف تأتى لك ذلك؟ إذ يبعد ذلك الجسر ثلاثة فراسخ من هنا».

«ببذل جهود ضخمة».

«إنها لجهود ضخمة فعلياً. آه، كم أود لو أستطيع أن أبذلها مثلما فعلت أنت».

«أي الأشياء تودين فعلها أولاً؟».

«أتمنى عبور الجسر».

«يتوجب أن يوجد جسر فوق النهر كي تتمكني من عبوره».

«بالتأكيد».

Twitter: @ketab_n

«بإمكاني أن أصنع واحداً».

«كيف؟ ربما بإسقاط بضعة أشجار فوق مياه الجسر».

«إن ذلك مستحيل. فالنهر واسع، بحيث لا تستطيع أي شجرة، مهما بلغت ضخامتها، أن تمتد فوقه من الضفة إلى الضفة الأخرى».

«كيف إذن؟».

«يجب بناء جسر».

«لكن ذلك يستغرق وقتاً. يجب أن أعبر النهر قبل أن تقرع أجراس بورسيننا لتعلن انتصاف الليل».

«بإمكاني أن أصنعه بسهولة في أقل من ساعة».

«إذن، اصنعه».

«وما ستعطيني مقابل ذلك؟».

«حياتي».

«ليست حياتك بالثمن الكافي بالنسبة لي».

Twitter: @ketab_n

«فما الذي تريده أكثر؟».

«أريد روحك».

«إذن، خذها. وابْنِ الجسر من دون إبطاء».

بدت كاتارينا غير متبصرة عندما لفظت تلك الكلمات، وكأنها تحت تأثير روح من عدم المسؤولية، فلم تعلم ما الذي قالته. ولكن ما كادت أن تنطق بكلماتها، حتى استعاد المنطق مكانه في عقلها. وفهمت بوضوح العواقب الجليلة لكلماتها. ووَدّت لو أنها تقدر على استرداد كلماتها، أو أن تُعطي لها تفسيراً على الأقل. ولكن، بدا أن الوقت قد فات على ذلك، إذ غادر الغريب الغامض موضعه. وعندما وصل إى ضفة النهر، غيّبته عتمة الليل عن الأنظار. ولم يسمع سوى صوت فؤوس ومجارف ومساحج ومناشير ومسامير ومطارق، فكأنما جيش من العمال والبنائين والنجّارين قد شرع في الحفر ونشر الأخشاب وتقطيع حجارة الغرانيت الضخمة، ليُرسي الأسس وينصب الأعمدة التي يرتفع فوقها الجسر.

Twitter: @ketab_n

وانشغل خيال كاتارينا بفكرة أن الرجل الغامض ذو البزة السوداء، ليس سوى الشيطان نفسه. وارتعبت من فكرة أنها ستفقد روحها أكثر من خوفها على فقدان حبيبها. وخلال اضطرابها، صرخت بالرجل: «لا تبنِ الجسر لأني لن أُعطيك روحي». ولم يصل صوتها إليه، لأنه غرق في هدير مياه نهر «كاداغووا» وجلبة الفؤوس والمساحج والمناشير والمطارق التي تـردّدت على ضفتي النهر، كأنما أرتـال من البنائين والنجارين يعملون عليهما. وعلى رغم تلك الضجة التي لا يقدر عليها بشر، تخيّلت الفتاة أنها سمعت صوتاً يعلو قائلاً: «لقد تأخرتِ! لقد تأخرتِ!».

ومع تقدّم الليل، رأت كاتارينا أعمدة بيضاً ترتفع وسط العتمة، لتصنع ما يشبه القاعدة أو الأساس الذي سيحمل قوس الجسر. وفجأة، التمعت بارقة أمل لتشدّ أزر قلب كاتارينا المتواهن. ومن فورها، انطلقت صوب شاطئ «كاستريبانا». وعندما وصلت الى شجرة الكستناء في «ألتاميرا»، ركعت على ركبتيها. ونظرت صوب كنيسة «بيغوننا». والتمست عون السيدة العذراء وحمايتها. وتضرعت إليها قائلة: «يا أيتها الأم المقدسة. أنقذي روحي

Twitter: @ketab_n

التي يتهدّدها الحرمان من الخلاص الأبدي». كان وادي «إبيازابال»[1] غارقاً في ظلمة تشبه تلك التي تسود في أعماق مياه «كاداغووا». وما كادت كاتارينا أن تتلفظ بتلك الكلمات، حتى أنارت غلالة من ضوء خافت الوادي، الذي طالما حمته السيّدة العذراء، إذ تُشرِف عليه من أعالي تلال «أرتاغان».

ما هذا الضوء؟ عساه نور الأمل! استقوت كاتارينا بالضوء، وشرعت في هبوط منحدر «كاستريبانا». وإذا الضوء الخافت الذي أنار «إبيازابال»، قد انتشر في وادي «كاداغووا». وفي غمرة ذلك النور، رأت كاتارينا، أو خيّل لها، أن القاعدتين اللتين رأتهما ترتفعان من ضفتي النهر، وكأنهما تلاقتا في الوسط، لتصنعا قوساً كاملاً. ومن ناحية أرض «إيتوريوز»، توهج نور قوي كأنه لهيب مشعل.

وأخذ ذلك النور ينزل صوب شجرة الكستناء، قبل أن يتوارى خلف الأغصان الكثيفة. وتسارع وجيب قلب كاتارينا الممتلئ عذاباً، إذ خيّل إليها أن اللهيب يعني اقتراب منتصف

(1) «إبيازابال»: تشير الكلمة الى «النهر الواسع». وأعطى الباسكيون ذلك الاسم الى نهر «نيرفيون» الذي ينبع من جبال «دورانغو» و«أوردونا»، ويعبر «بيلباو» ثم يصب في البحر عند «بورتوغاليت» أو بالأحرى بين «سانتورس» و«ألغورتا»، الى يمين المصب ويساره (المؤلفة).

Twitter: @ketab_n

الليل، وأن مارتينو غادر منزل أسرته ليترك إلى الأبد مسقط رأسه في الوادي. وثبّتت كاتارينا عينيها أمامها، ناظرة إلى الجسر الذي شارف على الانتهاء.

ولم يعد ينقصه سوى الحجر الرئيسي عند رأس القوس. وعلى حين غرّة، ظهر طيف ما على الجسر غير المكتمل. واتّخذ هيئة امرأة ذات جمال مشرق، تحمل في يدها غصن زنابق بيض. وصعدت الجسر. ووصلت إلى الشقّ المفتوح عند منتصف قوسه. ووضعت الغصن. ثم نزلت مسرعة، تاركة وراءها ذيلاً طويلاً من ضياء منير، امتد إلى عمق الوادي قبل أن يختفي. وأدارت كاتارينا عينيها عن جهة الشرق، حيث اختفى ذلك الطيف النوراني، وصوبتهما نحو الجسر المُشاد بطريقة رائعة وجذّابة. ورأت الرجل ذو البزة السوداء، يصعده حاملاً بيده حجراً ضخماً، ولكن من غير جهد، فكأنه يحمل كرة خفيفة. واجتاز القوس ليصل إلى المنتصف كي يضع الحجر في الفتحة عند رأس القوس، فيكتمل بناء الجسر. وذهبت أدراج الرياح محاولته اليائسة لإدخال الحجر في الفتحة. وطرق الرجل على الحجر بكل قوته، مطلقاً قسماً مع كل ضربة. ولم تُجْدِ جهوده كلها نفعاً. ورفض الحجر دخول تلك الفتحة، كأنما ثمة عامود حديد يمنعه

Twitter: @ketab_n

من ذلك. وضاعف الرجل ذي البذلة السوداء جهوده الغاضبة، خصوصاً مع سماعه دقات أجراس دير «بورسيننا» ترجّ الوادي مُعلنة انتصاف الليل.

وعند سماعه لتلك الدقّات، أطلق صرخة يأس. ورمى بنفسه إلى النهر، هاوياً بأُمّ رأسه إلى المياه المزمجرة التي جرفته بتياراتها القوية. واختفى إلى الأبد. وفي اللحظة التي ابتلعته فيها المياه، سُمِع صوت على الجسر يشبه صوت تكسّر غصن. وعند رأس قوس الجسر، انزلق الحجر الضخم في تلك الفتحة التي لم يستطع الغريب أن يضعه فيها. وصار الجسر مكتملاً. وجرف تيار مائي مُزمجر، بقايا عملية البناء الضخمة ومخلّفاتها، حاملاً إياها من «ألونزوتغيه» إلى «زوبليتا». وهرعت كاتارينا لتعبر الجسر، المكتمل البناء ببهاء، بخطى سريعة قاصدة مرج الكستناء في أراض «إيتوريوز». وبعد نصف ساعة، شوهد جمع من فتيان أغرار يصعدون بمحاذاة مجرى «كاداغووا»، متحسرين على أن الشاب مارتينو فضّل التمّلق المُخنّث لأهواء الحبّ على الأفعال الرجولية المجيدة للحروب.

وفي تلك الأثناء، رافق مارتينو الإيتوريوزي كاتارينا، ممسكاً بيدها، إلى منزل «كاستريانا». وودعها وداعاً عاطفياً ساخناً.

Twitter: @ketab_n

وصعد فوق جسر الشيطان. وسار صوب أراضي أهله. وعاد إلى منزله.

وعلى جنبات الحجر الضخم عند رأس قوس الجسر، تظهر زنابق بيض رائعة الجمال، في كل عام.

وتدأب عذارى وادي «إبيازابال» على جمعها صبيحة يوم «القديس يوحنا» ويسمينها «كاتالورس» المُشتقّ من الكلمة الباسكية «كاتالينلوراك» وتعني «زهور كاتارينا». وأدى تساقط الأمطار بشدّة غير معهودة في 22 سبتمبر 1523، إلى اهتزاز قوائم الجسر وأعمدته. وباتت قاعدته غير مستقرة. وارتُئي وضع حجار أصغر، لتحلّ مكان الحجر الضخم عند رأس قوس الجسر، كي لا ينهار أحد أكثر جسور منطقة الباسك أناقة وجمالاً ونبلاً.

Twitter: @ketab_n

أغنية لاميا[1]

١

حدث ذلك في الثلث الأول من القرن السابع عشر. وفي تلك الحقبة، اكتست منحدرات الجبال المحيطة بالوديان، بغابات كثيفة من الأشجار الوارفة. وشرعت تلك المروج في الاختفاء أثناء الحروب الأهلية. وتسارع اختفاؤها بعد تلك الحروب، بفضل دأب «زوروزا» و«دويستو» و«سالف» و«ريبا» على بناء الأساطيل البحرية.

وعندما كست مروج أشجار الكستناء وغابات البلّوط المُنحنيات الجنوبية في «أركندا» و«بريز»، الجرداويتان في أيامنا، كما غطّت الوادي (ليتمجّد اسم الرب!)، فإنها عوّضت عن الزينة الجميلة التي محضتها الأشجار القديمة للوادي. وأُضيفت إليها البيوت الجميلة ومجاميع الـ«كوينتا» والحدائق وأشجار الأوركيد. في تلك الآونة، عاش زوجان بهناء. وخلال العقود الثلاثة الأولى من القرن السابع عشر، وعلى منحدرات جبل

(1) لاميا: حورية الماء عند شعب الباسك (المؤلفة).

Twitter: @ketab_n

«بريز» المنتصب في قلب مرج أشجار الكستناء الضخمة، ظهر منزل مُحاط بهكتارات من الأراضي المرويّة. وأوحت تلك المزرعة، وسعادة من عاشوا فيها، للأهالي بأُغنية سمعتها للمرّة الأولى عند زيارة تلك المروج. وتلك كلماتها:

«تينيه هيرنسيا أُن كامبو بللّو
أونو كاسا أُن لا هيرنسيا
يون لا كاسا بان بي أمّور
إس غراند فيليسيداد».
أي:

من يحوز إرثاً في الأرض الجميلة،
وفي ذلك الإرث بيت،
وفي البيت خبز وحبّ،
تكون سعادته عظيمة

وفي سعادة غامرة، عاش مارتين وبرودنسيا، كما سمّياهما أهالي «أورريكويشيا». وابتدأ حبهما من انغماسهما في العمل. فقد عاشت برودنسيا في أحد بيوت «أورريكويشيا»، تحيط به أرض يتوجّب أن يكفي مردودها لإعالتها مع أمها، وهي الوحيدة الباقية من العائلة وقد طعنت في العمر، بحيث لا تستطيع أن

Twitter: @ketab_n

تعمل. وفي منزل مجاور لبرودنسيا، ترعرع مارتين الذي توجّب عليه أيضاً أن يعمل ليعيل والديه العجوزين اللذين لم يعودا قادرين على السعي للزرق.

وتتطلّب أعمال الفلاحة في أراضي الباسك، جهداً منسّقاً من قِبَل شخصين أو أكثر. ولذا، لم تُشاهد تلك المرأة تحفر أو تفلح أرضها وحدها. ودوماً ساعدها في تلك الأعمال جارها الفلاح الفقير، الذي لم تكن لديه أيضاً عائلة لتُعينه في الحقل ولا أموال ليدفع للمياومين فيعملوا معه. وفي المقابل، ساعدته في أرضه. ولنقل إنهما عملا متآزرين، فتناوبا أعمال أرضيهما.

وأطلّ شهر الفلاحة، إذ خلت السماء من الغيوم وصدحت العصافير على الأشجار وبرعمت الأزهار على ضفاف النهر. وتعاون مارتين وبرودنسيا، فعملا بالتناوب في فلاحة أرضيهما. وفي ذلك العمل، الذي لا أتردّد في وصفه بالمقدّس، تُبذر الأرض بحبوب العرق المتصبّبة من الجباه العاملة، كي تعطي ثماراً تكفي لخبز العائلة. وفي خضمه، انبثق من قلبي هذين العاملين المِعطاءين، شغف صاف، نما بسرعة وقوة. ويسهل فهم السحر العذب الذي مثّله العمل لهذين الشابين، أكثر مما يمكن وصفه بالكلمات. لقد تشاطرا

Twitter: @ketab_n

العمل، وتعلما فيه أن يحب أحدهما الآخر إلى أقصى درجة. وفي وقت متقارب، حرم كلاهما من الأب والأم. وأحسّ كلاهما أنه وحيد في هذا العالم. ولكن عندما رأت برودنسيا مارتين في منزله، وكذلك الأمر بالنسبة لمارتين، انبثق أمل فأشاع البسمة في حياتهما. وبعدها، أحسّ كلاهما أنه لم يعد وحيداً. وذات صباح ربيعي جميل، غادر مارتين منزله في عين اللحظة التي خرجت فيها برودنسيا من بيتها. والتقيا عند منحدر التلة. ونزلاه سوية. ودخلا كنيسة «القديس بيدرو» شفيع «دويستو». وبعد ساعة، صعدا الجبل، وقد اتّكأت برودنسيا على ذراعه. وبدل التفرّق ليذهب كل منهما إلى منزله، قصد الاثنان بيت برودنسيا. لقد جمع الحب، ويد الكنيسة، إرثيهما فصارا واحداً. وعاشا معاً لسنتين. كانا فقيرين في عين الثراء المادي، لكنهما تنعّما بثروات الحب والسعادة. ولا شك أنه في تلك الآونة، وضع ناظمو الشعر في جبال «غويري» وسهول «أولافيّغا»، تلك القصيدة الباسكية الصغيرة التي أوردتها، وترجمتها بكل تواضع، قبلاً.

ولأن لا سعادة كاملة في هذا العالم، فكذلك لم تصل سعادة

Twitter: @ketab_n

مارتين وبرودنسيا إلى الكمال. فعندما يكون مارتين في «أورريكويشيا» ويسمع رنين أجراس كنيسة «سانتا ماريا»، يقول عادة: «يجب أن نخصّص قداساً للالتماس من العذراء كي تشفع لنا عند الرب لكي يمنحنا الشيء الذي تكتمل به السعادة في بيتنا». ودائماً ما ترد برودنسيا، وقد تضرجت وجنتاها وعلاهما الفرح: «نعم. يجب أن نفعل ذلك».

Twitter: @ketab_n

٢

وأحسّ مارتين وبرودنسيا بفرح فائض، عندما أحسّت الزوجة أن رغبتهما على وشك التحقّق. وسرعان ما تبدّل فرحهما بالأسى. فذات صباح خريفي، مضيا إلى مرج الكستناء. وتسلق مارتين شجرة ضخمة، وأخذ يضرب أغصانها بالعصا. وفي سلّتها، جمعت برودنسيا حبات الكستناء المتساقطة. وفجأة، سُمعت صرخة من مرج الكستناء، وخرجت من شفتي مارتين صرخة رعب. وإذ هرعت لمساعدة زوجها، أطلقت برودنسيا صرخة مشابهة. وراحت تُطلق صرخات الاستغاثة. وهرع الجيران للمساعدة، لكن جهودهم ذهبت عبثاً.

وتلاشى مارتين، الذي سقط من علو بعد أن انكسر الغصن الذي كان واقفاً عليه. وفي خضم مرارة الحزن، سمعت برودنسيا أجراس كنيسة تُقرع لراحة نفس الموتى. وصَلّت بحزن، طالبة من الرب أن يريحها من عبء حياتها. وسرعان ما تذكّرت ثمرة

Twitter: @ketab_n

حبهما في أحشائها، فصرخت: «كلا. كلا يا ربي! أرجو أن أُكرّس حياتي للطفل الذي منحتني إياه».

وبعد شهرين، رُزِقت برودنسيا طفلاً جميلاً، خرج من بطنها بعد مخاض أليم.

مرت ثماني سنوات على ولادة إغناسيو. ولم تكن تلك السنوات سوى سلسلة متصلة من العذاب والتضحيات، من أجل إعالة نفسها وطفلها، الذي وُلِد متأرجحاً بين الحياة والموت، وانتصرت الحياة فيه بفضل عناية الأم. واعتاد ناسك كنيسة «القديس بارتولوميو» في بريز أن يقول لها: «من المذهل تذكر الثمن الباهظ الذي تبذلينه لأجل طفلك. إن كان لولد في العالم أن يُحب أمه، فيجب أن يكون ابنك». وعند سماعها لتلك الكلمات، لم تكن برودنسيا لتتمالك دموعها.

أكان ذلك لأن طفلها لم يحبها على قدر حبها وتضحياتها الكبيرة؟

ذلك ما كان، من دون شك.

ثمة حفنة قليلة من الأمهات اللواتي لا يستحققن أن ينعتن أولادهـن بالعقوق. ولا يوجد سوى قلة من الأبناء الذين لا

Twitter: @ketab_n

يحسون، بعد فقدان الأم، بالندم لأنهم لم يحبوها بقدر حبها لهم. فقد عامل أغانسيو أمه بلامبالاة، مُبخساً قدر حبها وعنايتها الحانية به. ولم يكن ذلك شأناً كبيراً بالنسبة لطفل في الثامنة لم يصل بعد إلى سن الإدراك. لكن تلك اللامبالاة أعطت نُذراً عن عقوق إغناسيو وتجلّد قلبه، حيال حب أمه وعنايتها وتضحياتها. وقد بلغ سن السابعة واهناً وضعيفاً. ومع دخول عامه الثامن، شرع في التحسّن بطريقة رائعة.

وفي السنة التالية، أصبح من أقوى الأطفال الذين يرتادون شواطئ «إبيازابال» وأكثرهم صحة. ولم تكن قمم «غويري»، بل شواطئ «إبيازابال» التي اعتاد إغناسيو أن يلازمها معظم ساعات النهار، متحدياً إرادة أمه التي خشيت دوماً أن يناله مكروه في تلك المياه. وذهبت أدراج الرياح محاولاتها لثنية عن ارتياد مياه النهر. وتمنّت برودنسيا لو أن ابنها أظهر تعلقاً بمنزل الأسرة، وفلاحة الأرض وجني الثمار من الأشجار المحيطة بها، كي ينخرط في أعمال الزراعة السائدة في بلاده.

ولكن حبه وخياله انصبّا على النهر والمياه والقوارب والبحّارة. وبالنسبة له، لا يُضارع الحقل جمال المياه الواسعة الزرقاء. ولم يُفضّل مسكناً على السفينة. ولم تعجبه علاقات سوى تلك التي

Twitter: @ketab_n

تنسج بين البحارة الخشنين الذين تصبغ الشمس جباههم بلون البرونز، والذين يمضون سني عمرهم في مقارعة العواصف ومواجهة القراصنة. وكلما سعت أمّه خلفه في «أولافيغا» أو «زوروز–أوري»، تجده يتدرّب على التجذيف أو يتسلق صارية السفينة أو يلعب على سطح مركب، أو جالساً في استراحة أحد السفن مُصغياً بانتباه كليّ للقصص والمغامرات التي يرويها البحّارة. وكي تربي طفلها، تكلّفت برودنسيا غالياً وتجرّعت أحزاناً مرّة. ولم يكن أقل من ذلك مساعيها لثنيه عن حب البحر الذي ظهرت علاماته مبكراً على الطفل. ولم يكن طموحها كأم أن يسير ابنها في حياة قوامها هجران أرضه والعيش وحيداً في قبضة المخاطر المستمرة. وانصبت أمال برودنسيا على أن يكبر ابنها بقربها، ليحصد غلال الحقول التي نثرت فيها البذار بدأب وبحب، ولينعم بالدفء قرب الموقد الذي شهدها تهرق الكثير من الدموع.

وعندما بلغ إغناسيو الثانية عشرة من العمر، أتقن القراءة والكتابة بفضل ذكائه الطبيعي والجهود الدؤوبة التي بذلتها أمه لدفعه للذهاب إلى المدرسة، وليس بفضل حبه للدراسة. فخلال أمسيات الشتاء الطويلة، أصرّت أمه على أن تقرأ له

Twitter: @ketab_n

بصوت مرتفع الكتب الدينية والوطنية. ولم ينجذب إغناسيو سوى إلى القصص الخيالية التي تتحدث عن رحلات كريستوفر كولومبوس ومغامرات البحّار إيلكانو وغيرهما من رجال البحر. وكذلك مال إلى الروايات التي تعمد إلى وصف مشاهد بحرية هائلة، كي تجتذب القرّاء. وألهبت تلك القصص خيال الطفل الذي بدا وكأنه لم يأت إلى هذا العالم إلا ليُسبّب العذاب والأسى لأمه الحنونة. وعملت الروايات والقصص المُضخّمة عن البحر، على استكمال الأثر الخبيث الذي خلفته حكايات البحّارة على السفن، في المخيلة الملتهبة لإغناسيو. وذات يوم رجته أمّه أن ينتبه إلى أنه أصبح في عمر يستطيع فيه أن يساعدها على فلاحة الحقل ورعي الماشية. وردّ عليها بالإجابة التي خشيتها. إذ أعلن أنه لا يحب أن يعيش فلاحاً، وأنه مصمم بشدة على أن يصبح بحاراً. وعبثاً حاولت برودنسيا ثني ابنها عما اعتزمه عليه.

واستمر الابن في عناده. ومرت الأيام. وبلغ إغناسيو العشرين من العمر. وأضحى أشد تصميماً على هجران الحياة المُسالمة في جبل «بريز»، مؤثراً عليها الحياة المضطربة لبحار يمضي أيامه في خضم المحيطات الواسعة. وبدل أن ينطفئ حبها بأثر من برودة إغناسيو تجاهها، زادت عواطفها عمقاً وصارت أكثر شغفاً به من ذي قبل.

Twitter: @ketab_n

ولم تجد سبباً للعيش سوى الرب وابنها. وإذا كان ثمة حب يستحق لقب الجنون أو المثالية الزائدة، فهو حب تلك الأم المسكينة لابنها.

Twitter: @ketab_n

٣

لم تكف دموع الأم وتوسّلاتها لردع إغناسيو عن عزمه على العيش في مياه المحيط. وذهب في رحلات قصيرة نسبياً في بحار «كانتابرا»، غيّبته عن أمه أياماً معدودة. وأحسّت الأم أنها لا تستطيع العيش من دونه. وذات يوم، قدم إغناسيو من الشاطئ مسرعاً، ليحمل لأمه النبأ السيء بأنه قرّر المُشاركة في رحلة في المحيط تستغرق شهوراً عدّة. ولم يكن ذلك القرار الوحيد الذي ألقاه على مسامع أمه المسكينة.

إذ قرّر أيضاً أن يبيع الأرض والمنزل اللذين عاش فيهما والده في صغره وحتى انتقاله للعيش في «أورريكويشيا»، كي يشتري بثمنهما مركباً جميلاً وسريعاً كان معروضاً للبيع على شواطئ «زوروز-أوري». وواجه توسلات أمّه ودموعها بالرد الذي طالما كرّره، ومفاده أن الموت العنيف يمكن أن يحدث في المحيط كما على البر، بدليل الطريقة العنيفة التي مات بها الأب في المرج الهادئ لأشجار الكستناء في «غويري».

Twitter: @ketab_n

وقاومت برودنسيا كثيراً، قبل أن تقرّ الابن على مشروعه. واستطاع الابن فرض إرادته. ولم يخفت حبها إذ ظهرت بوضوح أنانية الابن الذي لم يتورع عن بيع أرض الآباء إرضاء لنزوة عابرة. وازدادت تعلقاً به، كأنما حبها له يتغذى من دموعها الغزيرة.

وبعد أيام قليلة، قاد إغناسيو سفينته ورجالها، مغادراً المياه الهادئة في «إبيازابال»، وقد تاه فخراً وحبوراً. وانخرطت الأم في بكاء مرير على الشاطئ، إذ غادرها الابن بعد أن ودّعها ببرودة، قائلاً: «خلّ عنك هذا البكاء. لقد كرّرته كثيراً. وداعاً لمدة ستة شهور».

وابتعدت السفينة بهدوء. وسارت بدفع من قوة الريح، لأن سيّدها الذي يعتبر نفسه بطلاً متمرساً في شؤون البحر، قرّر ألا يلجأ إلى طريقة استخدام حبال الجرّ. ولم تُزحزح عينيها اللتين غشيتا من البكاء، عن السفينة المغادرة. وأملت أن يلوّح لها الابن بتحية وداع من البحر. وغابت السفينة خلف جبل «مونت ديل سكيلبرو»، من دون أن يتذكّر إغناسيو الالتفات صوب والدته المبتئسة لإزجاء تحية أخيرة إليها. وفي تلك الأيام، لم تكن قد ظهرت بعد تلك السهول الخضر الجميلة في «إلوريتتا»

Twitter: @ketab_n

و«زوروز-أوري» التي تمتد على يمين «إبيازابال» ممتدّة من «مونت ديل سكيلبرو» إلى «أولافيّغا». فحينها، لم تحتو تلك الأراضي سوى بضعة منازل.

وما يظهر الآن كأراض غنّاء تملؤها الأشجار المثمرة ونباتات الأوركيد، لم تكن سوى أراض جرداء تجتاحها التيارات المائية وتغسلها الأمواج. وعبرت برودنسيا تلك المنطقة التي تنتثر فيها أعشاب البرك وقصب المستنقعات المالحة، وقد تمزّق قلبها إرباً. وببطء، صعدت سفح جبل «غويري»، مُديرة رأسها صوب الشمال الغربي، عند كل خطوة، على أمل أن تلمح السفينة التي حملت ابنها. وكدأبها دائماً، بحثت عن شجرة كستناء باسقة ثُبّت عند أسفل جذعها صليب صغير، عندما وصلت إلى مرج الكستناء في «أورريكويشيا».

وهناك، ركعت وبكت وصلّت بحرارة، وبلّلت دموعها الأرض التي ارتوت بدماء زوجها. وفي ذلك الوقت، غطّت زهور تلتمع بتلاتها بلون أزرق يُذكّر بالجنة السماوية حيث يحتفظ الرب بالمسرات لأولئك الذين أضناهم الحزن في الأرض.

Twitter: @ketab_n

«طوبى للذين آمنوا». تلك كلمات السيّد المسيح. وامتلكت برودنسيا الكثير من الإيمان، فأناخت أحمال حزنها على السماء. وعندما وقفت على قدميها لتتابع المسير، بدا أنها ارتاحت من حملها الثقيل. وعندما اقتربت من منزلها، ألقت نظرة خلفها. كانت الشمس تغيب سريعاً خلف جبال «إنكارتاسيون» مغتسلة بحزم نور تعكسها المياه المضطربة بين «كاب لوسيرو» و«كاب فيلانو». وبفضل تلك الأضواء، استطاعت أن تميّز سفينة ابنها. وظلّت عيناها مثبّتتان عليها، حتى غابت في ضباب المساء. وطاب للأم أن تفكر أنه في اللحظة نفسها التي ترمق فيها السفينة، فثمة عينان محبوبتان على المركب تبحثان عن منزل «أورريكويشيا» الأبيض في ثنايا مرج الكستناء في جبل «بريز»، وقد امتلأت بالدمع.

Twitter: @ketab_n

٤

عند بداية القرن السابع عشر، عُرِفَت السهول التي يُشار إليها اليوم باسم «لامياكو»، باسم حقول القصب في «دونديز». وأطلق اسم «دونديز» على قرية جميلة وبهيجة تشرف على أراضي «لامياكو».

وفي تلك السهول قابلت الرجل العجوز الذي روى لي قصة برودنسيا، أثناء تدخينه الغليون ومراقبته قطعان الماشية في السهل الأخضر.

في لغة الباسك، كما في لغة أهالي «كاستيل»، يشير اسم «لاميا» على أحد المخلوقات الفانتازية التي يخترعها الخيال الشعبي. وتُشبه الـ«لاميا» حورية البحر، لكنها تختلف عنها. إذ تعيش الحوريات في البحر حصرياً، ويجذب غناؤها الرجال كي يقوموا بأعمال شريرة. وتتنقل الـ«لاميا» بين البحر والنهر، وتستميل الرجال بغنائها كي يصبحوا سعداء.

Twitter: @ketab_n

وأطلق أهالي الباسك على تيارات الماء عند شواطئ «دونديز»، اسم «لامياكو» الذي يعني حرفياً شواطئ لاميا. ولماذا أطلقت على شواطئ «دونديز» تسمية «لامياكو»، فهذا ما سيتضح لاحقاً. وحاضراً، تبدو تلك السهول خصبة، بفضل ميل الأهالي طبيعياً إلى العمل الدؤوب، حتى إنها تنافس أفضل أراضي «بيسكاي».

أما في تلك الحقبة، فإنها امتلأت بالمستنقعات الكريهة وأقصابها الكثّة وأحواض التيارات السود المتسارعة، بحيث تخيّل الناس أنها موئل للوحوش وملاذ للأرواح المتجوّلة.

ولنعد إلى برودنسيا. بعد مرور قرابة ستة شهور على مغادرة إغناسيو، لم تتلق الأم المسكينة أي خبر عنه. ودأبت على ارتياد شواطئ «أولافيغا» و«زوروز-أوري» سائلة البحارة العائدين من أميركا عن ابنها، ولكن من غير طائل. لم يحمل إليها أحد خبراً عن إغناسيو ولا سفينته. واحتفظت ببقية من أمل لأن الشهور الستة التي وعد بأن يعود بعدها، لم تنته بعد.

وقال ناسك كنيسة «سان بارتولوميو»: «ماذا يحلّ ببرودنسيا المسكينة إن لم يعد ابنها، وهي التي لا تعيش إلا على أمل عودته؟».

Twitter: @ketab_n

وفي كل يوم تسير الأم في الطريق الواسع التي تبدأ من سهل «أورريكويشيا» عند المنحدر الجنوبي لجبل «بريز»، وتنتهي عند قممه التي تعرف في تاريخ إسبانيا الحديث باسم «باندیراس». وعند تلك القمم تجلس ساعات طويلة، وتُثبّت عينيها على المحيط. وتأمل دوماً أن ترى على صفحة الماء الواسعة سفينة ابنها التي اعتقدت أنها لن تخلط بينها وبقية السفن. ولم تظهر أبداً سفينة إغناسيو بين العدد الكبير من المراكب التي تعبر يومياً خط الأمواج الضخمة الذي يمتد بين صخور «ألغورتا» ونظيراتها في «سانتورس». وشرعت أمالها في التلاشي، إذ لم يعد إغناسيو بعد مضي ستة شهور. وعلى رغم ذلك، واصلت برودنسيا صعود قمم «بريز» يومياً، لتعود خائبة بصورة متزايدة.

وذات غروب، وقفت كعادتها على تلك القمة، مثبّتة عينيها على الأفق. وشرعت الشمس في الانحدار صوب المغيب، مغتسلة بالأضواء المنبعثة من مياه الخليج بين رأسي «لوسيرو» و«فيلانو»، تماماً مثل وقوفها يوم مبارحة مركب إغناسيو تلك المياه. وفجأة، لاح شراع أبيض من بُعد، مُضاءً بنور الشمس. وأطلقت برودنسيا صرخة فرح. وهبطت المنحدر الغربي لجبل «مونت ديل سكيلبرو». وعبرت الجسر الخشبي الممتد

Twitter: @ketab_n

فوق الجدول عند برج «لوتشانا». وتخطّت سهل «أسبري» وصخوره. واجتازت مستنقعات «دونديز» في اللحظة عينها التي تجاوز فيها المركب خط «سانتورس». وانقطع عن برودنسيا مشهد المركب، إذ أخفته القمم والصخور. ولكنها تابعت سيرها على طول الشاطئ الذي كان جافاً نسبياً بسبب ضعف مياه المدّ. وأخذ قلبها يخفق بقوة. وانقطعت أنفاسها. واستولى على روحها توثّب الانتظار القلق، كسجين يعرف أن أول قادم سيحمل له إما خبر الحرية أو الموت.

وعندما تجاوزت الصخور، ألقت نفسها فجأة قرب السفينة التي طال انتظارها. وأطلقت صرخة ألم شديد. وسقطت أرضاً فاقدة كل حسّ، كأنما ضُربت بصاعقة. خانها قلبها. وخانتها عيناها. لم تكن تلك سفينة ابنها إغناسيو. وبعد برهة، استعادت وعيها. وبذلت جهداً هائلاً لكي تنهض مُجدداً. وسارت ببطء في طريق «أورريكويشيا» كأنها فقدت آخر أمل لها على الأرض.

وصلت برودنسيا إلى «أورريكويشيا» في وقت متأخر من الليل. وعندما قرعت أجراس دير «بورسينا» دقاتها الاثنتي عشرة، غادرت روح برودنسيا إهابها الأرضي، وارتفعت إلى السماء.

Twitter: @ketab_n

o

بعيداً من «أورريكويشيا»، قرب قمة الجبل، ينتصب دير جميل يحمل اسم القديس بارتولوميو. وقرابة العام 1379، تجمّع بعض الرجال الورِعين، وقد ملأتهم الرغبة في تكريس حياتهم للصلاة ولحماية المسافرين الذين يعبرون هذه السهول التي كانت خالية من السكان ومغطاة بالغابات الكثيفة التي ترتع فيها وحوش ضارية.

وانتظم هؤلاء الورِعون في سلك كهنوتي.

وفي العام 1429، تحوّلت صومعة «بريز» إلى دير للكهنة المتبعين لمذهب القديس أغسطين، الذي كان من الحَواريّين. وفي العام 1515، انتقل الجمع إلى جوار بلدة «بيلباو»، حيث أعطاهم الفارس الورِع تريستان دي ليغويزامور أرضاً، كي يبنوا لهم مسكناً وكنيسة جديدين. وبعد قرن من ذلك، أي في النصف الأول من القرن السابع عشر، اهتمت امرأة ورِعَة بشؤون دير القديس بارتولوميو، الذي ظل قائماً إلى أيامنا هذه

Twitter: @ketab_n

تقريباً. وغالباً ما شاطرت هذه المرأة برودنسيا همومها، وأعانتها بالنصائح الحكيمة. وسُميّت راهبة بريز. واشتهرت بقداستها. وبفضل حياتها المُكرّسة للصلاة والتأمّل، ساد اعتقاد أن روحها السامية بإمكانها اختراق حُجُب المستقبل.

وعندما لفظت برودنسيا أنفاسها الأخيرة، كانت راهبة بريز راكعة تصلي في مذبح الحواري أغسطين. وتملكتها الرؤى. وخُيّل إليها أن دير «سان بارتولوميو» اختفى عن الأنظار، وأن بوابات السماء حلّت محلّه. ورأت برودنسيا يحيط بها ضياء بهي ويحفّ بها موكب من أمهات سعيدات أعطتهن تضحياتهن ومحبتهن الأمومية هالة القداسة.

وشرعن في الاقتراب من العرش السماوي. وخوطبت برودنسيا على هذا النحو: «لقد عِشْتِ في قداسة كابنة وزوجة وأمّ. ولأنك أحببت كثيراً وعانيت كثيراً على الأرض، فستُمنحين المجد في السماء!».

«أشكرك يا رب»، صرخت برودنسيا وقد كسا وجهها فرح بهي، ولكن بدموع متلألئة في مقلتيها.

Twitter: @ketab_n

«أترين أنها نعمة لا تساوي ما مررتِ به من تجارب وآلام؟».

«كلا! بل هذا أكثر مما أستحقه».

«لمَ تتلألأ الدموع في عينيكِ، إذن؟».

«لأنه بقي في داخلي ذرة من ضعف إنساني. وأفكر أنه لو عاد ابني إلى شواطئ بلاده، فلسوف لن يجد أحداً في انتظاره ليرحّب به».

«سأريحك من آخر أثر للحزن الأرضي في قلبك. وأحرّرك من آخر ذرة من وجودك الإنساني. وأسمح لك بالطيران إلى شواطئ دونديز». ومع تلك الكلمات، تحررت عينا برودنسيا من آخر دمعة من الحزن الأرضي. وصارت مباركة. ولم تعد أمّاً بشرية. وعند تلك اللحظة عينها، اختفت الرؤى عن ناظري راهبة القديس بارتولوميو.

بعد وقت قليل من هذه الأحداث، أخذ الناس يسمون مستنقعات القصب في «دونديز» باسم لامایاکو. ويرجع ذلك إلى سماعهم صوت الغناء العذب للـ «لاميا» ينبعث في أرجائها. ولا يزال ذلك الغناء مسموعاً.

Twitter: @ketab_n

وسيظل يسمع ما دام أبناء هذه الأرض يغادرون شواطئها العريقة. وتسمع أغاني الـ«لاميا» كلما غادرت سفينة مياه إبيازابال إلى عرض البحر، حاملة معها فتى من الجبال. وتجمع تلك الأغنية كل الألحان الشعبية الجميلة، مُغنّاة بأصوات ملائكية. وتجمع أيضاً ألحان الناي والدف التي تُسعد الوادي، والأغاني التي هدهدتنا بها أمهاتنا وممرضاتنا في أسرة الطفولة، وصرخات زنسواك وإيوييك وأويويو التي ينادي بها الجبليون بعضهم بعضاً بين الجبال والقرى.

وكذلك تضم أحلامهم وأفراحهم وعذابات حبهم وأغنية الدروب الواسعة ودمدمة الوادي وهدير طاحونة الهواء ومطارق الحدادين التي تشير إلى مهنتهم. وتحتوي رنين أجراس كنائسهم والشائعات الحماسية التي يستيقظ عليها الأهالي في الأعياد، وزقزقة العصافير وتنهيدة النسيم وهدير أمواج البحر عندما تضرب الشواطئ. وبكلمة، تجمع أغنية «لاميا» كل النغمات والموسيقى والأغاني التي تشكل أنفاس وجود شعب الباسك وحياته.

وتحوز أغنية «لاميا» جمالاً وعذوبة وسحراً. ولا تنساها الأذن التي تسمعها. ولا يكف القلب عن الخفقان، إن سمعها،

Twitter: @ketab_n

من أجل أرض الوطن التي يصبو أولئك الذين غادروها للعودة إليها، إذ لا تكف أغنية الـ «لاميا» عن التردّد في آذانهم.

ومع مرور الوقت، تحوّل المنزل الذي وُلِد فيه إغناسيو والذي سُكب فيه الدمع مدراراً من الأم المسكينة، ديراً للرهبان الكبوشيين الترنيتاريين. وتراقب عيناي بقاياه الحزينة، عبر نافذة الغرفة التي كتبت فيها هذه الكلمات. ومن الحقائق الشائعة أن المحترم الأب ماتياس كاهن «مارغوينا»، الذي كان رأس ذلك الدير، حرص على تقديم أضحية خلال قداس خلاص روح ابن برودنسيا.

وفي ما خصّ ابن برودنسيا، فإنه لم يعد ولن يعود إلى شواطئ وطنه. إذ تُكافئ عدالة الرب المستحقين. وكذلك تُعاقب الأشرار. ولا تسامح أولئك الوحوش الذين لا يقابلون الحب الأمومي الدافق بمكافأة العودة إلى أرض الآباء، حتى لو تنهدّ كثيراً عند تذكّرها في المنافي.

Twitter: @ketab_n

عذراء المُدن الخمس[1]
أنشودة قصصية

إيرام حزين. ما الذي يُحزن إيرام؟ إنه صيّاد ماهر لا يكلّ. وعلى رغم ذلك، وُجِدَ فجراً عند «أكويلار»[2] وقوسه مُعلّقة على كتفه وكلبه الوفي ممدداً عند قدميه.

وحمت الأغصان الكثيفة في «إسكيروز»[3] نومه.

وسُرّت فتيات «سومبيلا»[4] إذ وَرَدْن ماء النبع، لسماعهن الأغاني المرحة لهذا الصياد الشاب، أثناء هبوطه المنحدر. أما الآن، فإن إيرام حزين. ما الذي يُحزن إيرام؟ انظر إليه إذ انحنى على الصليب الحجري الذي يفصل «نافار» عن «أراغون»، بعينين شاخصتين وملامح شاحبة سوداوية مكفهرة.

---

(1) مُدن أراغون الخمس: مجموعة تؤلّفها مدن «سوز» و«سادافا» و«أنكاستيللو» و«توسته» و«إيغتز». وتقع على الحدود بين «أراغون» و«نافار» (المؤلفة).

(2) «أكويلار»: جبل في «غوييزاكو» قرب «أندوانيا». ويحمل جبل آخر الاسم نفسه، لكنه يقع في وادي «الرين» في «نافار» (المؤلفة).

(3) «إسكيروز»: جبل في «نافار»، على حدود «باردينا ريال» (المؤلفة).

(4) «سومبيلا»: بلدة جميلة المناظر في وادي «الرين». تقع على خط مستقيم مع بلدة «فيداسوا»، على بعد قرابة 35 كيلومتراً من بلدة « بامبلونا» (المؤلفة).

Twitter: @ketab_n

أصغِ أيها الغريب. لقد تصيد إيرام طيلة النهار. وفاجأه ضوء القمر الأبيض نائماً عند مرج «باردينا ريال»[1]. صار بعيداً عن العمران، وحل التعب بقدميه الواهنتين. ونام. ورأى حلماً في منامه. وأضاء القمر بنور شاحب، طيفاً ملائكياً. تلك كانت عذراء ذات خمسة عشر صيفاً، مرتدية ثياباً بيضاً كأنها من العذارى الغابرات في «الكرمل». وبدت خصلات شعر فتاة الحلم حريرية بلون الذهب، كأنها القش الذي يبرعم من الذرة عند نضجها. وحازت عينين جميلتين كمقلتي ظبية من «أولين».

وامتلكت وجهاً بمثل جمال «بنزوزيا»[2] إلهة السعادة والحب العفيف. وتسارعت دقات قلب إيرام. والتهمت نار قوية روحه. ووضع الشاب يده على صدره فوجده فارغاً. واقتربت فتاة الحلم من الصياد النائم أكثر فأكثر. وجلست بجانبه. وحدّقت به صامتة لوقت طويل. ثم انحنت فتاة الحلم على جبهته، فغطّت خصلاتها المُعطّرة وجهه النائم. وفي الصمت الليلي الغامض، دوى صوت قُبلة. ثم سُمع صوت سماوي، اعترض مسار القمر، فصارت حزم نوره البيض تلتمع. لم يكن للصوت ما يشبهه على الأرض.

---

(1) «باردينا ريال»: سهل أجرد قاحل، تتناثر فيه الصخور والحجارة الضخمة المتكسرة. يمتد بضعة كيلومترات من تقاطع نهري «أراغون» و«إيبرو»، على بُعد كيلومترين من الحدود القديمة لمملكة «أراغون» (المؤلفة).

(2) «بنزوزيا»: تعتبر بمثابة «فينوس» الحب العذري عند شعوب الباسك البدائية (المؤلفة).

Twitter: @ketab_n

باستطاعة ذلك الصوت أن يوقف فوران البراكين عندما توشك على الانفجار في أعالي قمم «كانيغو»[1]، حيث تعيش. ويستطيع أن يُهدّئ الماء حول اللسان البحري في «جازيغيبيل»[2]. وقالت: «يا إيرام. بحثت عنك سنتين. ومن شبابيك ديري، ناديتك كل ليلة. وتُردّد الجبال نباح كلبك الجميل.

ويتردد صدى بوقك لمسافات طويلة. وأعود إلى سريري حزينة دامعة، إذ أدرك أنك لم تصغ لصوت ولم تستجب لنداءاتي. وتسخر من صويحباتي في الصباح، إذ يرين عينيّ متورمتين من البكاء. إيرام! إيرام! يناديك فمي، وقلبي يتحطّم. تعال بسرعة! تعال وإلا فقدتك وفقدتني إلى الأبد. أنا الجميلة سنغايا. أنا عذراء المُدن الخمس».

واستيقظ الصيّاد مجفلاً. كان القمر ينير العشب بحنو. ورقد كلبه الأمين بهدوء. وبدا صمت الليل مُهيباً بحقّ. ولم يظهر أي شكل في الغابة المتضوّعة بالروائح. ولم يسمع سوى خبب الخيل، أو بالأحرى استُشعِر من بعيد، على طريق «أراغون».

---

(1) «كانيغو»: جبل شاهق ووعر في جبال «بيرينيه» الفرنسية، ويمتد قسم منه إلى إسبانيا (المؤلفة).

(2) «جازيغيبيل»: جبل يرتفع بموازاة بحر «كانتابرا»، بين مرفأي «باساجين» و«فيونترابيا». وعند طرف حدوده الشمالية، يمتد لسان صخري سُمي قديماً «أوليرزو»، ويحمل راهناً اسم «رأس هيغير» (المؤلفة).

Twitter: @ketab_n

وصار خبب الخيل أكثر علواً. وامتطى رأس الخيل العاديَة، لورد «إيغا» و«سوز» و«فردان». وبقربه، أُجلست عذراء على حصان أبيض. وأسدلت على وجهها خماراً من خيوط الفضة الرقيقة. وتبعتهما حاشية من الأقارب والأصدقاء وخدم من «أراغون».

«قل لي أيها الخادم الطيّب، ولتحرسك العذراء، من أين تأتون؟».

«نأتي من دير مجاور، أيها الصيّاد الجسور. إن أردت أن تعرف أكثر فعليك أن تُسرع، لأن خبب الخيل أخذ يبتعد».

«قل لي أيها الخادم الطيّب: من هي تلك الفتاة التي أُجلِسَت على حصان أبيض وقد أسدلت على وجهها خماراً من خيوط الفضة الرقيقة؟».

«إنها سيّدتنا: سنغايا الجميلة. عذراء المُدن الخمس التي تترك ديرها لأمر جلل».

«أخبرني أكثر أيها الخادم الطيّب: هل أن سنغايا الجميلة، عذراء المُدن الخمس، تُحب زوجها المنتظر؟».

Twitter: @ketab_n

«لقد جاءت حزينة، أيها الصيّاد الجسور، حزينة وممتلئة بالدموع. إن زوجها الموعود متعجرف لئيم. لقد أرادوا أن يزوجوا النبتة الغضّة شجر البلوط الذي نخره الدود».

«شكراً لك أيها الخادم الطيّب. وقُل لسنغايا الجميلة إن الصيّاد إيرام قد فرغ صدره لأن قلبه ذهب خلف عذراء المُدن الخمس».

ردّت الفتاة: «لقد تأخر ذلك».

ولهذا السبب، أيها الغريب، فإن إيرام حزين. ولهذا السبب اتكأ على صليب الحجر عند حدود «نافار» و«أراغون»، بعينين شاخصتين وملامح شاحبة سوداوية مكفهرة.

أفسح مكاناً. أفسح مكاناً للمنشد الذي جاء من أرض بعيدة. أفسح له مكاناً، فقد جاء في الوقت المناسب لينازع على الجائزة في ألعاب الورود. أعطته كليمانسا إيزورا[1] الإشارة.

لنستمع إلى الغريب. وشرع يقول: «أيتها النبيلات: استمعن بشغف إلى قارض الشعر. ليس صوته بالجميل لأن بركان جبال

(1) «كليمانسا إيزورا»: سيدة نبيلة عاشت في القرن الخامس عشر، وتنحدر من سلالة نبلاء بلدة «تولوزا». وبفضلها، أحييت ألعاب الورود، بعد أن نُسيت لقرن من الزمن. وعند موتها في العام 1513، تركت ثروة ثابتة لإعطاء جوائز للشعراء الفائزين في تلك المسابقة (المؤلفة).

Twitter: @ketab_n

الـ «بيرينيه» وعاصفة المحيط ورياح السموم في الصحراء، جعلت صوته أجشاً.

«رأيت زايرا قرب بركة مبرون[1]. وكانت زايرا فاضلة حلوة. أنا عطشان، قلت لها. ورفعت إبريقها المصنوع من طين نهر النيل، ووضعته على شفتي الظمآوين».

«أحِبّني أيها النصراني، أحِبّني. تلوح حول خيمتي أغصان اثنتي عشرة نخلة، وعندي اثني عشر إهراءً من الذرة، واثني عشر جملاً من أحسن الأنواع. أحِبّني أيها النصراني، أحِبّني».

«لستِ سنغايا الجميلة، عذراء المُدن الخمس. لقد سرقت قلبي وأنا نائم في المرج. لا أستطيع أن أُحبّكِ».

«ليحمك الله أيها النصراني الطيّب. أمامك الطريق إلى الغرب. وأنت محق، فأنا أقل جمالاً من سنغايا».

ووضع المغني الجوّال قيثارته على كتفه، وراح يشدو.

«أنا إيميه ابنة الأعماق. أنا جميلة، كما ترى. عندي عقود من مرجان البحار، وأساور من ذهب، وأحزمة من المغرب. أحبّني أيها المُنشِد. أحبّني».

(1) «مبرون»: بركة ضخمة في فلسطين، ذاع صيتها أيام الحملات الصليبية (المؤلفة).

Twitter: @ketab_n

«لستِ سنغايا الجميلة، عذراء المُدن الخمس. لقد سرقت قلبي وأنا نائم في المرج. لا أستطيع أن أُحبّكِ».

«ليحمك الرب، أيها المُنشد. أمامك رحلة طويلة من قبرص إلى أرضك. ليقدك الحب! وأنت محق، فأنا أقل جمالاً من سنغايا». ووضع المُنشد قيثارته على كتفه. ووصل إلى أرض وطنه. لقد مرّت سنوات طوال على مغادرته تلك الأرض.

وسأل صخور «أكويلار»: «أين سنغايا الجميلة»؟ وأجابته الصخور: «لقد رَحَلَتْ من هنا».

وسأل أشجار «إسكيروز»: «أين عذراء المُدن الخمس»؟ وردّت الأشجار: «لقد غادَرَت من هنا».

وسأل مرج «باردينا ريال»: «أين التي سرقت قلبي عندما كنت نائماً؟»، فدمدمت الرياح بحزن أنها رَحَلَت إلى الأبد.

وعلّق العازف الجوال قيثارته على كتفه. وتوجّه إلى «تولوزا»[1] ، لينافس على الجائزة في ألعاب الورود. ولن يعود إلى موطنه، ولا إلى جبالها، إذ أخبراه إن سنغايا الجميلة رحلت ولن تعود.

(1) «تولوزا»: عاصمة مقاطعة «غوبيزاكو» (المؤلفة).

Twitter: @ketab_n

«أيها النبيلات. لقد سمعتّن صوتي غير الجميل لأن إعصار جبال البيرينيه وعاصفة المحيط ورياح السموم في الصحراء، جعلته أجشاً».

وذرفت كليمانسا إيزورا الدموع.

«ما اسمك، أيها المُنشد الصالح؟ إن أنشودتك رقيقة، وأعطتها لكنتكَ الغريبة جمالاً غريباً».

«يسمونني إيرام الصيّاد، لكن لا اسم لي اليوم».

«سأمنحك اسماً أيها المنشد الصالح. انظر. إليك هذه الوردة الذهبية، لأنك استحققتها عن نبل. غنّ. غنّ بلغتك الجميلة أمجاد محاربي بلادك، والحب في أوديتها والأعاصير في جبالها. الشعر ملك للعالم. ومع ذلك، يظهر الإلهام الحقيقي ويُحسّ أكثر عندما يكون قريباً من المنزل الذي شهد ولادتنا».

هكذا تكلمّت كليمانسا إيزورا مع المُنشِد. واقتربت السيدة النبيلة من الغريب، مرتدية خماراً من خيوط الفضة البيض الرقيقة. وسألته بتأثّر: «أما زال قلبك خالياً قانطاً؟ إذاً، خذ قلبي مكانه، فأنا فتاة الحلم الذي رأيته في باردينا ريال».

Twitter: @ketab_n

وأحس المُنشِد أن صدره عامر بالفرح.

«نعم. نعم. أنت سنغايا الجميلة، عذراء المُدن الخمس». واحتضنها بين ذراعيه. ومنذ ذلك اليوم، لم يشاهد إيرام قطّ متكئاً على صليب الحجر عند حدود «نافار» و«أراغـون»، بعينين شاخصتين وملامح شاحبة سوداوية مكفهرة.

Twitter: @ketab_n

كوروسيفيكاتورين كانتا[1]
(قصيدة المصلوب)
أنشودة قصصية

غابات «أودولاغا»[2] كئيبة. ويصعد صوت مريع من هاوية «غوزالزا». ويغطي «كوروسيتا»[3] وجهه بنقاب من ضباب.

«لِمْ تبكين، يا عذارى «إيزاسبي»[4]؟ ولِمْ تنتفون لحاكُم يا شُيّاب «إيرازيل». ماذا تعني هذه العيون الباكية، وتلك الشعور الشَعثاء؟».

لم يُجب أحد الغريب. لا كلمات للحزن. إنه صامت كالموت. مسحت العذارى دموعهن. وبتعالٍ، شدّ الشيوخ الأحزمة على خصورهم. وجلسوا صامتين متأثرين، على الجذوع المتكسّرة لشجر البلوط.

---

(1) كوروسيفيكاتورين كانتا (قصيدة المصلوب): خلال الحرب الطويلة التي شنّها الرومان ضد أهالي الباسك، عمد الرومان إلى صلب المساجين على رؤوس الجبال، بهدف إثارة الرعب عند الأهالي. وأثناء صلبهم، أنشد المصلوبون الشجعان من الباسكيين أغاني النصر، والاحتقار لأعدائهم. وغالباً ما راقب الرومان هذا الغناء بمهابة، إذ دلّ على الشجاعة وروح معتدّة باستقلالها (المؤلفة).

(2) «أودولاغا»: جبل مغطى بالغابات يصنع حدّاً فاصلاً بين واديي «بازتان» و«ألزاما».

(3) «كوروسيتا»: جبل في «غوبيزاكو» و«نافار»، صُلِبَ عليه مئات الباسكيين، خلال الحرب الطويلة ضد الرومان.

(4) «إيزاسبي»: موقع قديم في «نافار».

Twitter: @ketab_n

بدا حزنهم عاتياً عميقاً. لا يجدر بشخص من الـ إسكار أن يُظهر ضعفه لأعين الغرباء. إذ يترك للآخرين شهيق البكاء العالي واعتصار الصرخات من الأرواح الضعيفة. تطقطق الأشجار بصخب عندما تتكسر، وأما الصخور، فإنها تهوي دونما جلبة. ويشبه الإسكاري الصخر: يموت من دون أن يقدر الموت على إخراج تنهيدة منه. ويُصدر الضباب الكثيف الذي يغطي «كوروسيتا» من صدره أنغام الغابات وصرخات النصر. ويرتجّ جبل الباسك من قاعدته. ويهزّ جبهته الحجرية قاذفاً للرياح بإكليل من غيوم. القمر بدر في مايو. وتدير ملكة الليل وجهها الدموي ناحية «أوتسوندو»[1]. وتُضيء القمم بنور أحمر غامض.

تتصاعد صرخات النصر، وكذلك أنغام الغابات. وتتوقف الأنهر عن الجريان. وتصمت رياح الغابات، وتتراجع بخفر لتختبئ في الأغصان الكثيفة الأوراق. أي قربان غامض يوشك على البدء في جبال الباسك؟ أوه! أي ظلال أخذت في الظهور في الأفق؟ يا للخط الطويل من الرماح!

تنحني أجساد عارية على الصلبان المرفوعة، لكن جباهها مرفوعة بفخر، ونظراتها متعالية، وتعلو شفاهها تعابير الاحتقار.

(1) «أوتسوندو»: جبل على الحدود الفرنسية، قرب «أورداكس»، في «نافار».

Twitter: @ketab_n

وتُطلق صرخات النصر بوجه الرومان المذعورين. وتصرخ شفاه المصلوبين: «اشهد، يا قمر مايو، بالنور على أعيادنا وأجسادنا! أنثر ضوءك. وكَلّل جباهنا بتاج النصر والشهادة!».

«يودّ الرومان لو يرون على وجوهنا ملامح العذاب، تلك التي تناسب الجبناء، ولسنا بالجبناء».

«هذه الصلبان عروش مجدنا!».

«إنهم يكون كالصبية عندما تزهق أرواحهم. وننشد قصيدة الموت، وترانيم النصر!».

«تقولون إن أوكتافيوس قيصر عظيم. والحقيقة أنه عظيم مثلكم، بالجبن والغدر».

«اشهد، يا قمر مايو، إذ تلتمع فوق الوديان النضرة والجبال الوعرة والغابات الظليلة في أرضنا».

«أخبر أطفالنا وزوجاتنا وأحبتنا وبلدنا عن الأفعال المجيدة للإسكاريين، وعن جبن الرومان الذين يحدّقون بنا».

«أخبرهم أننا واجهنا ابن نهر تيبر بدمائنا التي تُنَوْفِر من جراحنا. أخبرهم أن قلوبنا ستستمر بالخفقان لأجل بلادنا، حتى

Twitter: @ketab_n

بعد أن تصعد أرواحنا إلى السماء!».

«يا تُبّع الطاغية. ويا أرض العبيد! كم نحتقركم، مثل احتقار الدب للثعلب. وعلى وجوهنا التي شحبت من الأهوال، رسمنا علائم الاحتقار. وما زالت قلوبنا مملوءة بحب الحرية والوطن. وأخبر آباءنا الأحباء وإخواننا الأعزاء، عما شاهدت، وعن صرخات النصر التي انطلقت من «كوروسيتا» فأجابتها صرخة القتال والانتقام من جبال الباسك كلها».

«يا قمر مايو! يا نور مايو! قَبّل جباه أطفالنا وأمهاتنا. واحمل الى زوجاتنا، اللواتي وقفنا معهن في مذبح الكنيسة، الخفقة الأخيرة في قلوبنا».

«آه يا قمر مايو! ردّد معنا الشعار الأخير في أرواحنا يحيا الوطن! وكل الاحتقار والكراهية لروما الوثنية».

ويرتفع هذا الصخب ليرد عليه آخر، ضخم وذي صدى رهيب. يملأ الصراخ أعماق الغابات وينتشر في الفضاء. ويبقى جبل الباسك صامتاً.

وتصبح غابات «أودولاغا» أكثر كآبة. ويصدر من فم

Twitter: @ketab_n

«غوزالزا»[1] صوت يثير الروع أكثر فأكثر. ويغطي «كوروسيتا» بمزيد من الضباب الكثيف. وتنزل أنوار قمر مايو على الوديان. وتعزي أشعتها الباردة عذارى «إيزاسبي» وشيوخ «إيرازيل».

Twitter: @ketab_n

(1) «غوزالزا»: مغارة ضخمة وعميقة، مليئة بالكريستال، قرب «موندراغون» في «غوييزاكو».

الإغارات

«هورا! كوساكوس ديل ديزيترو، هورا!

لا إيروبا أوز بريندا اسبلانديدو بوتن.

سانريانتا شاركا سوس كامبيناس فيستان».

إسبرونسيدا

((هورا! يا قوزاق الصحراء، هورا! تمنحكم أوروبا غنيمة رائعة.

فلتصبح ساحات معاركها برك من دم. ولتصنع العقبان عيداً من جيشها).

غَنّ، أيها الشاعر، غَنّ! أنت أيها القديم كالعالم. وقد غزا البياض شعرك في اليوم الذي زُرعت فيه أشجار الزان الضخمة في «بردريز»[1]. غَنّ، أيها الشاعر، غَنّ! يا أكبر المُرتجلين عمراً، أيها المنشد لأعيادنا وحبنا وأفعالنا الشبيهة بالحرب! غَنّ لنرحّب

(1) «بردريز»: جبل يقع على بعد كيلومترين من بلدة «إروريتا»، في وادي «بازتان».

Twitter: @ketab_n

بإخواننا من وادي «برتيزارانا» ومن «بازتان» ومن «إيزكوا» ومن «إررو» ومن «رونكال»[1]. ولنطلق بالصوت الأقوى تحية الـ «ليكايو» لترحب بإخواننا من «إلزوبل» ومن «أوتسوبايد» ومن «هيرنيو» ومن «إيتزغوري»[2]. الليل مظلم، والريح تصفر عابرة أشجار «إيراتي»[3]، فتجبر ذئب الجبل على إخفاء رأسه البني. الليل مظلم، وزوابع الريح ترمي ندف الثلج أكواماً. إنها ليلة مسرّة بالنسبة لنا، نحن أطفال الجبال والعواصف. إنها ليلة مخيفة بالنسبة لقادة الرومان، إذ تجعل ابن الـ«تيبر» المُترف يرتجف عندما يلوذ بسريره الناعم. سندخل بقوس مؤثر إلى حدائق مكتظّة بالتماثيل، وإلى قصور من رخام، وإلى غرف نوم عُلّقت فيها ستائر من حرير. سنحتفل على موائد من عاج. وسنعُبّ خمر «سيراكوز» وقبرص، مسكوباً في كؤوس من ذهب مرصعة بالحجارة الكريمة.

وستحوك نساؤنا عباءات أرجوانية كي تُرتدى في المعارك فتُميّز لابسيها. ولسوف يزيّن شعورهن بخيوط من فضة. وسيسمع قادة فيالق الحدود صرخة النصر «إيررنزي»، فيظنون

(1) «برتيزارانا» و...: أودية في «نافار» على الحدود الفرنسية. الأودية الثلاثة الأولى ضيّقة وتحوطها جبال شاهقة.

(2) «إلزوبل» و...: جبال. يقع الأولين في «نافار» والثالث في «غويبيزاكو».

(3) «إيراتي»: جبل رئيسي في «نافار». تغطيه غابات كثيفة ترتع فيها حيوانات كبيرة الحجم مثل الدب والوشق والذئب.

Twitter: @ketab_n

أنهم سمعوا ضجيج الإعصار. ولسوف نعبر السهوب بسرعة الريح. لقد صلب الرومان أسرانا، ولسوف نُخرّب مُدنهم وندوس حقولهم. وفي أنوار حرائق تُكلل قمم الجبال، سيشدو أطفالنا ترانيم النصر.

غَنّ، أيها الشاعر، غَنّ! إنها ساعة إغارتنا: البومة تلجأ إلى الشقوق، ويختبئ الذئب في جحره، وبذعر، يدفع النسر عُرفَه تحت جناحيه. ذلك أن الليل مخيف للكائنات كلها، ما عدانا نحن أبناء الجبال والعاصفة. تقدّموا يا إخواني! لنحتس خمرنا الأخير. لنأكل خبزنا الأخير. وليطلب أطفالنا المزيد! ولنرفع كأس الحليب الحامض، ولنشرب كأس الرحيل. إلى الأمام يا أبنائي! فلتنم نساؤنا، ولتصمت كلابنا. ستدوم الإغارة ثماني شموس.

هكذا تكلم قائد الـ«إزالزو»[1]. وردّدت صخور «أورابارا»[2] أصداء مزاعمه.

وتدفّقت مياه النهر، الذي سيُسمى لاحقاً «إيراتي»، متّخذاً مساراً سريعاً. وبعد ساعة، عبر الجبليون الأرجاء المهجورة في «مونتلغ» و«أستاراك»[3]. وظهرت على ميمنتهم، كأنها هياكل

(1) «إزالزو»: قرية تبعد خمسة كيلومترات من «أوشاغابيا» في وادي «إيزكوا» في «نافار».

(2) «أورابارا»: مضيق جبلي شديد الانحدار في «نافار».

(3) «مونتلغ» و«أستاراك»: أماكن مهجورة في جبال الـ «بيرينيه» في فرنسا.

Twitter: @ketab_n

عظمية لأفيال عملاقة في ظلمة الليل، المعابد التي ترجع لأيام قبائل الـ «درويد» الوثنية في بلدات «أستيه» و«سيم» و«نستوس» و«هياس»[1].

ومن هناك، اندفعوا عبر المضائق الجبلية المظلمة في «هياس» و«زولوغاريا» و«إزوتتزك» و«أساروستا»[2]، ليصلوا إلى الحقول

الخصبة في «نوفمبوبيلانيا»[3]. وهبطوا بصمت، كموجة سوداء

ضخمة، كأنهم الزفرة الأولى لإعصار باغت في الليل الماشية.

تنام «نوفمبوبيلانيا» بين الحدائق والزهور. وقد بُنيت قصورها الفخمة برخام جُلِب من «باروس» وذهب أُحضِر من «إثيوبيا». وفي الليل، تتصاعد من تلك القصور روائح الولائم.

(1) «أستيه» و«سيم» و«نستوس» و«هياس»: مناطق جبلية ومهجورة في قلب الـ «بيرينيه».

(2) «زولوغاريا» و...: مضائق أو مفازات جبلية في الـ«بيرينيه» الفرنسية، تبتدئ في إسبانيا.

(3) «نوفمبوبيلانيا»: خلال عهود الهيمنة الرومانية، امتدت هذه المقاطعة من المحيط «الكانتابري» إلى نهر «غارونا»، ومن بداية سفوح جبال الـ«بيرينيه» الفرنسية إلى حدود النهر المذكور أعلاه، وصولاً الى مصبّه في المحيط، مُكوّنة زاوية حادة.

Twitter: @ketab_n

وهبط أبناء الجبال، كأسراب من طيور البحر، صُرّت في طوق عاصفة كريهة. ووضع جنود حراسة الحصن الرومان ذوو الرؤوس الصلعاء، رماحهم بجانبهم. وراحوا في شبه إغفاءة متعمّدة. ذلك أن الجبال بعيدة، ولا صوت يصدر منها. وكذلك فإن العواصف عاتية، والليل مرعب قاتم. وامتلأت مياه نهري «أدور» و«نييف»[1]، بأجساد الذين سبحوا فيها بصمت. ولم يسمع صهيل خيول الحرب. ولم يسمع خفق علم الأيدي الثلاثة أبداً. ولم يستيقظ الصدى على صوت صرخة الحرب «إيررنزي». وظلّت عذارى «إهرين» و«إيزسلو» و«أراي»، نائمات في سلام.

وقد لا يؤرق النوم سوى صوت العاصفة العاتية أو الأنغام الأخيرة لقيثارات الذهب. وفي الصحو، يسير الضحك لرؤية ذلك الأرستقراطي ذي القلب الخانع، واضعاً إكليلاً من الغار أثناء ألعاب «هيبرس». وتكون الأشياء بخير، لأن الجبال بعيدة، ولأن لا صوت يصدر منها، ولأن العاصفة عاتية، والليل مرعب قاتم.

(1) «نييف» و...: نهر فرنسي ينبع من وهدة شمال جبال الـ «بيرينيه» الغربية. ويتصل مع نهر «أدور» في «بايون»، ويصبّان سوية في المحيط «الكانتابري».

Twitter: @ketab_n

وتلتمع في أقصى قوس الأفق نقطة حمراء. تليها واحدة هنا، ثم هناك. ثم تقترب النقاط. آه! كم تتزايد هذي النقاط الحمر!

وكيف تزبد مياه الأنهار! كم من صَخب يتمازج في زمجرة العاصفة! ما هي تلك الأشباح التي تكتسح السهول؟ أي دخان يرتفع، كأنه غطاء جنائزي، بين الأرض والسماء؟ غَنّوا، أيها الشعراء، غَنّوا! غَنّوا لغزوات أبناء الجبال والعاصفة. تقطّر الدماء من الرماح. ويعود الرجال محملين بالغنائم. غَنّ، أيها الشاعر، غَنّ! ولتردّد أصداء صوتك الموسيقي في غابات «كاهيلا»[1] و«بيلايا» و«أهايد»، منشداً لنصر أبناء «أيتور». غَنّ، أيها الشاعر، ذي اللحية الفضية! سيشبع أطفالنا خبزاً ونبيذاً. ومن قبورهم، سيضحك قادتنا الذين صُلبوا في «كوروسيتا» و«إيزاسكون».

وسيبقى ابن «تيبر» في الأسفل، بين أطلال القصور المحترقة. وفي الربيع المقبل، ستُغطي الحدائق المُخرّبة شجرة متكلسة مصفرة الأوراق. وداعاً، يا إخواني، وداعاً! في غزوتنا المقبلة، سنعبر نهر «إيبرو»، وستصل صرختنا الحربية حتى إلى «مونكايو».

(1) «كاهيلا» و...: جبال شاهقة قرب وادي «رونكال» في «نافار».

Twitter: @ketab_n

الحرب المقدسة
أنشودة قصصية

حلّ الاعتدال الخريفي. يمسح الإعصار بنفخات قوية أوراق شجر الزيتون والكرمة، في المقاطعات الجنوبية. وبزمجرة، يغيّر مساره، ليصعد صوب جبال الباسك. الليل قاتم. وتمتلئ غابات «بيسكاي» ومنحدرات وادي «غوبيزاكو» وسهول «ألافا»، بالأصداء الهائلة الكفيلة ببث الرعب في أكثر القلوب رجولة. وترتجف المزارع والحظائر من أساساتها. تهتز المدافئ الضخمة. وترتجف شجرة الكستناء الفخورة، التي تنمو قرب الأبواب، بغضب، كأنها انغمست في مصارعة نبيلة مع الريح. ويتابع الإعصار مساره. وإذ يلاقي الصخور الضخمة في رؤوس الجبال، يبدو، في غمرة غضبه، كأنه يريد أن يقتلعها ليطوّح بها إلى الأسفل.

ثم يدور حولها، في غضب عقيم، ويطوّقها بزوابع قوية. وإذ يدرك عبث مساعيه، يهوي رأساً صوب الوديان. ثم تضاف إلى زمجرته صرخات الطبيعة التي هوجمت وجُرِحَت.

Twitter: @ketab_n

ويرقد «إيشكو-خوانا»[1] بسلام، وكذلك يفعل كلبه الدرواسي الأمين. ولا تؤرقه تلك الزمجرات التي يألفها أبناء الجبال والغابات. وعلى رغم ذلك، يرفع كلب الدرواس، فجأة، رأسه الضخم. وينصب أذنيه. ويفغر شدقيه. ويُطلق نباحاً مُنذراً. ويرفع «إيشكو-خوانا» رأسه مُتّكئاً على وسادة سريره. ويصغي بأذن متنبّهة، ممسكاً ببوق الحرب.

ما الذي أيقظ «إيشكو-خوانا»؟ وما الذي نبّه كلبه الدرواسي؟ فوسط زمجرات العاصفة، سُمِع صوت مرتفع. تجاوز دوي الصوت الـ«إيبرو». إنها صرخة شعب بأسره، إذ أُهينت كرامته ولُطّخ شرفه.

هكذا فهم القائد الباسكي وكلبه الأمين تلك الصرخة.

وصعد كلاهما قمة الجبال. وسرعان ما أُضيف نفير بوق الحرب إلى زمجرة الإعصار. وبضربة وحيدة، ارتفع لهيب النيران من سلسلة كاملة من الجبال من «لاروم» على حدود «نافار»، الى «تولوزا» على حدود «كاستيل». وطغت أصداء بوق الحرب على هزيم العاصفة. وعبرت غابات «بيسكاي»، عبر منحدرات «غويبيزاكو». واكتسحت السهول الجرداء في «ألافا».

(1) «إيشكو-خوانا»: مالك البيت ورب العائلة.

Twitter: @ketab_n

وبلا هوادة، ردد قادة القبائل الثلاثة، في مرتفعات «غوربيايا»[1] و«أمبوتو»[2] و«إيتزغوري»[3]، صرخة الحرب ناشرين النفير الذي حملته العاصفة. ومن «غوربيايا» و«أمبوتو» و«إيتزغوري»، صدر النداء الذي لا يملك الباسكي ألا يستجيب له. «إيا، إيا، إيا. أو، أو، أو! بل زار!»، ترددت الصيحة في «فيتوريا» و«تولوزا» و«غورنيكا»[4].

وتجاوبت أصداؤها في أُمّة الـ«إسكارا»[5] بأكملها، التي أجابت بحماس عظيم «إيا، إيا، إيا. أو، أو، أو! بل زار! بل زار!».

«انهضوا من قبوركم، أيها المحاربون والشعراء التاريخيون! انفضوا التراب الجنائزي المتراكم فوقكم سنوات طوال! ومزّقوا أكفانكم إرباً إرباً! أنتم يا محاربي «زوريا» و«أيالا» و«ألافا»، ويا آلاف المحاربين القدماء في الملاحم التاريخية.

(1) «غوربيايا»: جبل في «ألافا» يطل على السهول المحيطة بمدينة «فيتوريا».
(2) «أمبوتو»: تلة مرتفعة على الحدود المشتركة بين «بيسكاي» و«ألافا» و«غوبيزاكو».
(3) «إيتزغوري»: جبل في «غوبيزاكو»، يعتبر امتداداً لـ «ألونا». يرتفع 1800 متراً عن سطح البحر.
(4) «فيتوريا» و«تولوزا» و«غورنيكا»: المعسكرات الثلاثة التي التقى فيها قديماً الـ «بيل زار» أو لقاءات القدامى. وتوزّعت بين «ألافا» و«بيسكاي» و«غوبيزاكو»، على التوالي.
(5) «إسكارا» أو «إسكورا»: اسم يطلقه الباسك على من يتكلم تلك اللغة. أنظر مقال جوليان فينسون عن لغة الباسك في كتاب «أساطير الباسك» تأليف الأب وينتورث وبستر.

Twitter: @ketab_n

سارعوا للاستجابة لصرخة الحرب «بل زار»! في «بيسكاي» و«غوبيزاكو» و«ألافا». لم ينقرض أحفادكم بعد، فإن نهضتم تسمعون الأفواه تتناقل الشعار الذي نُقش قديماً على دروعكم: «إيل، إيدو غواراشيا!».

«ما الذي أنتن فيه منغمسات، أيتها الرئيسات المتألقات من ألافا؟».

«نَحُوك للابن الذاهب إلى الحرب المقدسة، كتّافية عليها نقش لسيّدة نيفس».

«وأنت، أيتها الفتاة الجميلة من برغار، ماذا تفعلين؟».

«لمعبود قلبي الذاهب إلى الحرب المقدّسة، أصنع كتّافية عليها نقش لسيّدة أرانزانزو».

«ما العمل الذي يشغلك إلى هذا الحدّ، أيتها الابنة النبيلة من دورانغو؟»[1].

«أنا منشغلة بصنع كتّافية عليها نقش لسيدة بيغوننا، ليرتديها أخي الحبيب الذاهب إلى الحرب المقدسة».

(1) «دورانغو»: مدينة رئيسية في الباسك.

Twitter: @ketab_n

«أتعلمن أين يذهب الأخ والحبيب والابن، أيتها الباسكيات النبيلات؟».

«اسمع أيها الغريب. سيذهبون عبر إسبانيا. وكما في الأيام الغابرة، سيعبرون أراضي الغال. سيمرون في المضيق الجبلي، كمثل عبورهم في رودانو. سيطلقون صرخة الحرب والنصر من أعالي جبال أطلس»، كما فعلوا ذات مرّة في كابوا. سيعاضدون إخوانهم في كاستيل. وسيمسحون العار عن جبين أمنا جميعاً. ويموتون أو ينتصرون، كشأنهم في رغيل[1] وكاناس[2] وكوفادونغا»[3].

«أترى، أيها الغريب، تلك الغمامات الشفافة التي تطفو في الأفق؟ إنها تضم أرواح المقاتلين القدماء الذين حاربوا لأجل بلادهم. أتسمع الأنغام الحلوة التي تخترق الرياح؟

تلك أصوات أولئك الذين يصلون إلى الرب طالبين منه النصر لأبنائهم. أتلاحظ الضوء الواسع الذي يغمر أرض إسكارا

(1) «رغيل»: كان اسمها قديما «إيرازيل»، وهي مدينة قرب «تولوزا». تمرد أهلها ضد الرومان أيام أغسطس.

(2) «كاناس»: معركة شهيرة ربحها هنيبعل ضد روما. وحسم المعركة فيلق مؤلف من وحدات باسكية.

(3) «كوفادونغا» (و«نافاس» و«سالادو»): ثلاث معارك دامية خسرها المغاربة. وأدت فيها الفيالق الباسكية دوراً حاسماً.

Twitter: @ketab_n

بأسرها؟ ليس هذا سوى انعكاس باهت للهالات التي تكلّل أرواح الذين قضوا دفاعاً عن ربهم وبلادهم وملكهم. ستخفق أعلامنا الحربية وراية الأيدي الثلاثة، إلى جانب أعلام كاستيل. وحينها، بئساً لراية ماهوميت!

«إذا قضى أبناؤنا، فسنأخذ بثأرهم. إذا مات أطفالنا، فلترتفع أرواحهم إلى الغمامات الشفافة مُرتّلة الأناشيد لمجد الرب، وستكلّل جباههم بهالات تكسف نور الشمس».

هكذا تكلمت السيدات المتألقات والفتيات في مقاطعات الباسك.

وأجابهن الغريب: «ليباركن الرب، مرة وألف مرة، أيتها السيدات النبيلات». ثم اختفى.

«يا أبناء الجبال، تعالوا. انهضوا كوقفة رجل واحد استجابة لأنشودة الحرب والحرية. ثلاثون جيلاً من الحروب والانتصارات ميّزت قبائل الـ «بيرينيه» وأعطتها عظمتها. وأبداً لم تغب الأمجاد البكر عن تلك العظمة.

«تنبهوا يا أحفاد إيتور: المؤسس الشهير والمستنير لسلالتنا. انطلقوا، لأن إخوانكم خلف الإيبرو ينادونكم. اقبضوا

Twitter: @ketab_n

بسواعدكم القوية على سلاح النصر. وامضوا صوب أفريقيا. ولتهزّ صيحاتكم الحربية جبال أطلس. إذ تنتظركم هناك معارك جديدة وانتصارات جديدة. قاتلوا أعداءكم حتى الموت. وسيمنحك الرب مجداً يظل متوهجاً كمثل نيران الحملان الثلاثة في الأعياد!».

هكذا تكلم قادة الباسك. وردّت الجيوش الثلاثة على ندائهم المتوثب. واندفعت إلى المعركة تحت الصيحات المرعبة للأمة الواحدة، التي صرخت: «إيا، إيا، إيا، أو، أو، أو! إيل إيدو غواراشيا!».

Twitter: @ketab_n

نبوءة لارا[1]
أنشودة قصصية

في مرتفعات «ألونا».بمقاطعة «أوننات»[2]، شُيّد صرّح منيف ذو تصميم رائع. وفي تلك الأرض الوعرة، بعيداً عن سكنى البشر قاطبة، ظهرت أمام عيني رودريغو البالزيتغي المدهوشتين، فتاة جميلة وقفت بين أشجار دغلية مشوّكة.

وفي ارتباكه، سألها الراعي: «أرازان، زو؟» (أي «هل أنت شوكة»)؟ أول منزل صنع لأجل تلك الفتاة، كان كوخاً ريفياً من القشّ والأوراق. وعند نهاية القرن السادس عشر، تحوّل ذلك المسكن الخشن إلى مبنى، هو موضوع هذه الأنشودة القصصية. وحمل الدير، وكذلك النهر الذي ينبع بقربه، السؤال الذي طرحه الراعي على الجميلة: «أرازانزو». وكل

(1) «لارا»: شاعر شاب وقائد في جيش الباسك أيام الحروب ضد الإمبراطورية الرومانية. وخصّص الشاعر سيليو إيتاليكو، في ملحمته الشعرية التي ملأت ستة عشر كتاباً، صفحة كاملة لوصف المعركة بين لارا وسيبيو، فقد خلالها القائد الباسكي يده اليمنى.

(2) «ألونا»: جبل في وادي « غوييزاكو»، شيدت مدينة «أوننات» الرائعة عند قاعدة سفحه الجنوبي. واتخذها إنفانت دون كارلوس دي بوربون، عم إليزابيث الثانية، مقراً لمحكمته معظم الوقت في حرب السنوات السبع.

Twitter: @ketab_n

من رأى ذلك الدير[1]

يقال إن جنيّاً خارقاً شيّده في الهواء، ثم ثبته عقب اكتمال بنائه، على الرؤوس الحادة للصخور في قمة الجبل. فقد تمتع بتصميم جريء إلى حدّ الاعتقاد بأن قوة غير طبيعية قد شيّدته، وليس يد الإنسان. واستند مبناه الضخم على أقواس تمتد من تلة إلى تلة. وعبر هذه الأساسات الهوائية، من المستطاع رؤية السماء من جهة، وهاوية سحيقة حملت اسم «قفزة الشيطان» من جهة أخرى. وعند أعلى نقطة فيه، ارتفع رمز ديني مقدّس.

وذات ليلة، ألفيت نفسي متكئاً على صخرة عند نهر «أرازانـزو». وعلى اليمين، في الجهة المقابلة للوادي الصغير، يرتفع جبل «أوريجولا» والمدينة التي تحمل الاسم عينه، فكأنها عش نسر حطّ على أعلى نقطة في صخرة. وفي المقابل تقريباً،

(1) دير «أرازانزو»: دير على الجهة الجنوبية من جبل «ألوننا»: شُيّد لأجل الدعاء لسيدة «أرازانزو». وسكنه الإخوة الفرانسيسكان. مميّز بموقعه الرائع. ويقال إنه انتصب على النقطة الأكثر ارتفاعاً ووعورة من الجبل. وارتفق فوق منحدر عميق. ويدل ذلك على متانة بنيانه وتفرّد تصميمه. واشتهرت صورة سيدة دير «أرازانزو» في ثلاث مقاطعات في الباسك. ويسود احترام عام لها، لحد اليوم، في معظم أرجاء الباسك. ويحج كثيرون إليها في شهر مايو. ويصعب تخيّل شيء أكثر روعة من نيران المعسكرات في الجبال، إذ تضم الحجاج الذين تضيق عن إيوائهم النُزُل الرحبة القريبة من الدير. ويرتفع منها أصوات الأرغن، والأوركسترا المنسقة، أثناء الابتهالات التي يرتلها المصلون للسيدة العذراء. ويصعب رؤية الدير من مسافة خمسين متراً. وللأسف، فقد اُضطرمت النيران في هذا الصرح الجميل من قِبَل فيالق الجنرال روديل أثناء حربه ضد دون كارلوس. وستظل هذه الفعلة البربرية موضع إدانة واستنكار دائمين.

Twitter: @ketab_n

وكذلك على مبعدة في قعر هاوية مخيفة، لاحت عبر الضباب قرية «أراوز»، محوّطة بصخور مثل ألماس المناجم في البرازيل. وعلى امتداد البصر، يصعب رؤية أي أثر لسكنى البشر. وتناثرت الصخور والمنحدرات المتكسرة حول المكان، تغطيها نباتات قصيرة، فبدت المرتفعات الصخرية المتكسرة عارية. وقد يُمضي عِقابٌ ثقيل الطيران ليله على تلك القمة، ليهضم طعاماً سيئاً اقتنصه صباحاً من السهول الخصبة في الأندلس. وتختبئ بعض الطيور الضارية، بصراخها المخيف، في كهوف القديس إلياس، التي يُظن تقليدياً أنها شديدة العمق إلى درجة أن مخارجها لم تُعرف قطّ. وتمضي مياه نهر «أرازانزو» الشفافة قدماً. إذ ينبع تيار ماؤها من أعماق تلك الهاوية، ليسير عبر مفازة جبلية واسعة. ثم يظهر ثانية. ويُزجي التحية لنهر «ديفا»، فكأنه تجسيد لشاب طائش يُخبئ نفسه جزلاً في هاوية الشيخوخة، ثم يرمي بتحيته إلى الموت. وأضاء قمر مايو تل الأرض القاسية التضاريس. وظهر كمصباح مُعَلّق في الفضاء، موزّعاً ضوءه الفضي المُبلّل على الأرض. ويُبرز التنقّل المفاجئ بين العتمة والنور، الرؤوس الحادة للمرتفعات. وتدفع الشقوق والعيدان الكثيفة والصمت العميق والسكون الرائع، إلى تخيل أن المكان برمته كان بحراً لجباً ارتفع، بدفع من إعصار عاتٍ، على هيئة أمواج متلاحقة،

Twitter: @ketab_n

ثم تجمّد من الرعب، بإشارة من الخالق العظيم. وقد يتخيل المرء، في شطحة أخرى، أن مدينة هائلة شيّدتها العملاقة لسكناها، ثم دمرها زلزال هائل. ولقد رأيت، بما لا يدع مجالاً للشك، أطلالاً ضخمة لجدران منهارة، وأبراجاً مجهولة التصميم شبه منهارة، لكنها محتفظة بأسوارها ومنافذها وأعمدتها وأقواسها الرائعة. ولا تُظهر تلك الأطلال أثراً للقواعد التي شيدت على أساسها، سواء أكانت قديمة أو حديثة.

أين كانت تلك الأشياء كلها في الأزمنة الغابرة؟ وأين ستمسي عندما تستهلكها الدهور؟ فكرت في تلك الأمور كلها. ورمى خيالي المتقلقل بنفسه إلى العصور الغابرة، وإلى أزمنة أخرى. ورأيت في الأعماق القاتمة لتلك الأودية والمهاوي، إذ نهضت ببطء، كتلاً من ثلج أبيض شفاف. واتّخذت تلك الكتل أشكالاً غامضة. ثم تحوّلت، أمام عيني المدهوشتين، إلى أشكال بشرية. وعبر أمامي رجال محترمون مسنون، بلحى بيض، وقد التفعوا بمآزر «دلماتك» الفاخرة من أزمنة التاريخ الباسيك السحيق. ومرّوا أمامي بصمت في تتابع منتظم. وصوبوا إليّ نظرات حزينة. وتابعوا سيرهم الهوائي صعوداً صوب دير «أرازانزو». وخلفهم، وبالنسق نفسه من التتابع، سار محاربون شبان حملوا

Twitter: @ketab_n

بأيديهم اليمنى سيوفهم العارية، وقد خُرّقت اليد اليُسرى لكثير منهم، بالمسامير.

كانت تلك الفيالق التي ربحت معركة «كاناس»، تحت قيادة هنيبعل. وعبر أمامي معهم جنود صلبهم الرومان، وردّدوا أنشودة المصلوب أثناء موتهم. وضم العابرون أيضاً محاربين صمدوا لخمس سنوات في وجه الإمبراطورية الرومانية عندما كانت في عز قوّتها وتحت قيادة أفضل قياصرها، من دون مساعدة. يا شهداء «كوروسيتا» و«إيتوريوز» و«ألتوبيكار»! يا أبطال «كاناس» و«ريغال» والقديس أدريان. بمثل تلك الجُمَل، حييت الظلال المهيبة التي عبرت أمامي. وعلى رأسهم سار لارا، المقاتل المعروف من «غويبيزاكو» والذي اشتهر كشاعر أيضاً. وزيّنت جبهته بإكليل من أوراق الغار، فيما حمل بيده قيثارة مجهولة الصُنع.

ووجهت النظرة الحزينة عينها إلي من الموجة الثانية من العابرين، ملتحقة بالأبطال القدماء الذين اختفوا. ثم ظهر صف طويل من السيّدات بشعورهن الطويلة المنفلتة والفتيات والأطفال، وساروا خلف المحاربين الشبان، بصمت وبعيون حزينة وبأيد معقودة على الصدور. وبعدهم، تتالت مسيرات

Twitter: @ketab_n

بإيقاع متواتر، شوهد فيها أبطال «كوفادونغا» و«نافاس» و«سالادو»، وهـؤلاء أبناء «كانو» و«أوربيتا» و«أوكيندو» و«كوروكا» وغيرها. وخلفهم، وكأنما لاختتام المسيرة، ظهرت غيمة سوداء كثيفة، من المستطاع العثور في وسطها على فراغ كبير تملؤه هالة مشعة. شكّلت تلك المسيرة ملحمة شعرية حيّة رائعة، شارك فيها رجال قضوا قبل أجيال. وفي ذلك الفراغ المنير في قلب الغيمة السوداء التي أحاطت بالمسيرة، هل ثمة مكان لرجال المستقبل؟ وإلى أين اتجهت تلك المسيرة؟ ما هي دلالة الصمت المهيب والنظرة الحزينة؟ هل يرون في المستقبل أطلال البلاد؟

ما إن ابتعدوا عن النظر حتى نهضت واقفاً. وتابعت رحلتي. الصمت عينه في الطبيعة، والسلام عينه أيضاً. ومن وقت لآخر، تناهى إلى مسامعي، مع النسيم، خرير الماء والأصداء الحزينة لصرخة ألم من نورس فاجأته الطيور المفترسة في عشّه.

وعند وصولي إلى زاوية في الدرب الذي سلكته، وحيث تمكن رؤية دير «أرازانـزو»، لاحظت بدهشة أن الظلال التي عبرت أمامي، أصبحت الآن عند الرؤوس المسننّة التي يقف عليها ذلك المبنى. ومن المستحيل وصف الروعة التي صار إليها

Twitter: @ketab_n

العابرون، عندما تلاقت جموعهم معتصمة بالقمم المُسنّنة، بصمت وثبات.

وزادت في بهائهم المآزر البيض الفاخرة التي تجلبب بها بعضهم، وواقيات الصدر اللامعة ودروع الزرد التي ارتداها آخرون، وكذلك الملابس التي كست النسوة والأطفال. وتجمّدت عند رؤية تلك المشهدية الغرائبية. ولم ينكسر صمت الطبيعة، وما تبدّلت الظلال الثابتة.

وفجأة، رفع ذلك الذي يقف عند «قفزة الشيطان» يده، فانتشرت موسيقى ناعمة في الفضاء. وركعت الظلال كلها. وظهر مشهد جديد قوامه الطبيعة البدائية والمنشدون والعازفون الخفيّون. ولم يكن المستمعون سوى الظلال المهيبة للأجداد. وتناهت إلى مسامعي موسيقى جليلة، لكن جميلة الإيقاع. وإذ ارتطم وقعها بالصخور، تبدّدت أصداؤها في المدى البعيد. ولم تُشبه موسيقى المعابد. وامتلكَت إيقاعاً غريباً. تلك موسيقى متفرّدة تأتي من آلات مجهولة، وتُغنّيها أصوات لا شيء بشرياً فيها.

وسُمع نواح يبعث على الارتجاف، وبكاء يهزّ الروح، وتنهّدات تُمزّق نياط القلوب. ثم تلتها أصوات ناعمة، تشدو إيقاعات منسّقة تُبعث في الروح نقاء سماوياً. وتوحّدت تلك

Twitter: @ketab_n

العناصر وتشابكت وتداخلت فصنعت إيقاعاً يشبه المقطوعات الموسيقية، ترافقه أصوات آلات نفخ قوية، تصبح أحياناً ترنيمات ناعمة فتتخذ إيقاعاً شاعرياً عذباً. لا الترانيم الدينية للأوسيانيين ولا عزف قيثارات الأياليين في البلاد الشمالية، تمتلك هذا السحر الذي استمعت إليه مأسوراً. وفي اللحظة التي اختبأ فيها القمر عند قمة «إيتزغوري» والتي اختفت فيها أيضاً ظلال الغوييزاكويين القدماء، شرعت الموسيقى التي تملّكت قلبي في الخفوت. وببطء، تلاشت تلك الأصوات، حتى احتجب القمر تماماً، وكذلك اختفت الظلال. اختفت الموسيقى أيضاً، بنغم طويل بطيء وجميل.

وفجأة تغيّر المشهد الرائع. صار النور ظلاماً. وحلّت محل الموسيقى صرخات الطيور الليلية. وفي تلك اللحظة، أحسست بيدين مثلجتين توضعان على رأسي. وبذعر، رفعت عيني. ورأيت لارا المحارب النبي والشاعر الباسكي، الذي حدّق فيّ بنظرات سوداوية. وأحاطت هيولة من ضوء خفيف، الوجه الذي يعلوه إكليل من أوراق الغار. وعلى سترته المُحاكة من أفضل الصوف، التمع رداء رائع يرمز للسلطة. وحملت يده اليسرى آلة وترية لا أعرف كنهها. وحوّمت على شفتي الشاعر ابتسامة حزينة.

Twitter: @ketab_n

وبصمت، تأملني لبعض الوقت. ثم حدثني بصوت عذب قائلاً: «اجلس، واستمع إلي يا بنيّ».

ولقد أطعته بصورة ميكانيكية. وما إن جلس حتى راحت أصابع النبي الراحل تداعب أوتار آلته المتفرّدة، فصدرت عنها أنغام شجيّة كأنها تنهيدة طفل يحتضر. ثم شخص ببصره إلى السماء. وشرع يتمتم كلاماً لم يكن مفهوماً في البداية، لكنه سرعان ما صار واضحاً لأذني المصغيتين.

«يتطاير الزمان. وتنهمر السيول. وتسير مياه الأنهار في مجاريها»، قال النبي.

ما إن سمعت هذا التشبيه القوي والمطلع البسيط، حتى تخيّلت أنني أرى في الشاعر صورة «أيتور»، أقدم القدماء، أبو الآباء، ورأس العرق الهندو-أطلسي، وأول الباسكيين.

وتابع: «استوطن رجال من عرقي إسبانيا عندما غطتها الطحالب الطفيلية. وأزيلت تلك النباتات عن التراب البِكر بالنار. وانعكس لهيب تلك النار الهائلة على ثلوج الشمال. وغطّت أعمدة الدخان الواسعة، السماء الصافية عند أطراف نهر الغانج.

Twitter: @ketab_n

وحينها، كُنّا سعداء وأحراراً.

وهرعت إلى إسبانيا أعداد لا تُحصى من الغرباء،

طمعاً بالذهب الذي احتقرناه. وهجرنا السهول لمصلحة أولئك التجار الجشعين. ولُذنا بالجبال كي نتابع طقوسنا النقية المقدسة.

وحينها، كنا لا نزال سعداء وأحراراً.

ووصل أبناء رومولوس، إذ غزا سادة العالم السهول. ونزل قائد الباسك من الجبال. وبصرخة النصر إيررنزي، هزّ مياه نهر التيبر الذي التجأ إلى بتيكا ليُداري تخبّطه.

وحتى حينئذ، كنا سعداء وكنا لا نزال أحراراً،

في ما تبِعَت بلاد العالم، راسفة في قيودها، المركبة المنتصرة لقيصر روما.

أي شائعات تلك التي يحملها الأفق؟ أي صرخات وحشية تهزّ السلام في وطن الباسك؟ أتصادف أن حملت ريح الشمال القارسة الجني الشرير المتجهم المقيم في الأرجاء المثلجة؟

Twitter: @ketab_n

مدن عامرة رائعة صارت ضحية للنيران، وانهارت أبراج هائلة، وتهاوت جدران سميكة قوية. واختفت أمم بأكملها كأنها الشرارات التي تذروها الريح، عندما اكتسحتهم مجاميع شعب لا يرتدي سوى الجلد،

جاء من بلاد متوحشة مُطلقاً صيحات صاخبة عن الموت والدمار.

ورغم ذلك، كنا سعداء وأحراراً، لأن تلك المجاميع الجارفة تكسرت وتناثرت أشلاءً عندما اصطدمت بجبالنا المتعالية.

وا أسفاه على إسبانيا! لقد أحنى سكانها رقابهم لنير الغزاة.

في ذلك اليوم الحزين، هبّت العاصفة من الجنوب.

ومع ذلك، ارتدّت القبائل الأفريقية عن زحفها المنتصر، عندما رأت علم الباسك يلوح من قمم أمبوتو.

وحتى حينه، كنا سعداء لأننا كنا لا نزال أحراراً.

ولكن، منذ ذلك اليوم، مرّت سنوات وأجيال».

وخفض الشاعر صوته. وفجأة، شعّ في عينيه ضوء خارق. وعلت ملامحه علامات غضب عارم. واهتزّت أوتار آلته بقوة كبيرة.

Twitter: @ketab_n

وارتفع صوت المتنبئ مُمَوْسَقاً وضخماً، ليشق الهواء.

وأَخرسَ رياح الليل المتنهدة. وقال: «لا تزال مخاطر كثيرة في هذه البلاد. أنظر هناك، إلى القلاع والأسود! إنهم يتربصون لقمع هذا الوطن القديم الحرّ، بتهديداتهم. يتجمع كثيرون خلف حدود إيبرو.

نعم. أصغ إليهم يتحدثون زيفاً عن الحرية، لأنهم يريدون سلبنا حريتنا.

هيا! يا أبناء أيتور، يا من تحملتم ثلاثين جيلاً من القتال من أجل الحرية والاستقلال.

هيا! ارفعوا سواعدكم من تحت التراب. ورددوا صرخة الحرب القديمة الرهيبة.

هيا! لقد انضمت إلينا أرواح إخواننا في معسكرات أرياغا وغورنيكا وغوركيز، كي نتضرع معاً إلى الرب ليمحضنا الحماية. لقد تجمعنا لنطلب العون من سيدة أرازانزو المقدّسة».

وما إن نطق بهذه الكلمات، حتى غادر عينيه النور. وعلا الحزن جبهته. وبصمت انحنى إلى الأرض.

Twitter: @ketab_n

ومن شفتيه الشاحبتين، خرجت تلك الكلمات:

«ما لا تستطيع القوة أن تحصل عليه، تناله الحيلة والإرادة الشريرة. وداعاً يا بنيّ: إن هذه البلاد تهلك، ولم يبق فيها لنسلي النبيل سوى البكاء المُرّ».

وضع يده المثلجة على رأسي. وتلاشى تدريجاً، مختفياً مع ظلال الليل.

وبعد أربعة شهور، انتفضت مقاطعات الباسك كلها. وهرع أبناؤها إلى الحرب التي استمرت سبع سنوات، ثم انتهت بنهب واستيلاء. وقضى قائد الباسك العظيم أمام جيشه، ليتغمد السلام روحه. وسقط دير أرازانزو في فم النيران. ولو شاهد أي شخص المشهد الذي جهدت في وصفه، لرأى في القلب المنير لتلك الغمامة السوداء التي سارت في مؤخرة المسيرة، أشخاصاً متشابكي الأيدي ومحاطين بهالة من ضياء. ومن هؤلاء، يظهر جورجي الراعي[1] الذي كان بطل الحرب ضد نابليون،

(1) جورجي (جاسبر): جنرال عمل تحت إمرة الملكة إليزابيث الثانية. ترعرع في بلدة «فيا-ريال» في وادي «غوييزاكو»، ثم صار راعياً. وقاد صفوف المقاومة خلال الحروب مع نابليون.

Twitter: @ketab_n

وزومالاكارغي[1] بطل حرب السنوات السبع.

في معبد المجد، لا مدخل لأهـواء السياسة. وأبعد من المعسكرات، تعطى البركة والسلام للإنسان الصالح.

(1) زومالاكارغي (توماس): ولد في بلدة «أورمايزتيغي» في وادي «غوبيزاكو». شغل منصب القائد العام في جيوش دون كارلوس. توفي بأثر من جراحه أثناء الحصار الأول لبلدة «بيلباو» عام 1835. واعتُبِر من أهم قادة إسبانيا في عصره.

Twitter: @ketab_n

هوركا- مندي[1]

إيرانزو! إيرانزو! إلى أين تمضي راكضاً عبر المرتفعات الوعرة في «سورازو»، قافزاً فوق نباتات السرخس المهشمة والمنحدرات الصخرية؟ هل صادفتك صرخة «إيررنزي» المُرعبة في مفازات «أورولا»؟ هل اشتعلت مرتفعات «موريا» بالنيران المشؤومة التي ترتجف منها قلوب الأمهات والعذارى؟ كلا، كلا، إذ لا تُمسك يداك قوساً حربياً، ولا تنحني كتفك من ثقل جعبة مملوءة بالسهام المسممة بعصارة نبات تيجو[2] لست ذاهباً إلى الحرب يا إيرانزو. يدخل أبناء عرقك المعركة بأنشودة،

ويموتون بقلب ساكن. وتكون عيونهم متحررة من الفزع

(1) هوركا- مندي: كلمة باسكية تتألف من مقطعين: هوركا (تعني مشنقة)، ومندي (تعني جبل)، أي أن معناها: جبل المشنقة. وهو اسم المكان الذي جرت فيه أحداث القصة المتصلة به. وفي أوقات سابقة، عُرف باسم هوركا- مندي- مندايا، التي تعني أيضاً جبل المشنقة. ومع الزمن، سقط القسم الأخير من الاسم، فصار اسماً تقليدياً.

(2) تيجو: شجرة منتشرة في الباسك، يصنع من عصارتها السم. واستعمل أهالي «كانتابرا» ذلك السمّ ليقضوا على أنفسهم، بدل الهزيمة والاستسلام للأعداء. ومن اسم تيجو اشتُقّ لفظة «توكسكوم» الذي يعني «السم» باللاتينية. وتناول الآلاف من الشيوخ والعجائز هذا السم، بحسب مؤرخين رومان، في مدن «مودليا» و«هيرينو» كي لا يلقوا مصير العبودية والهوان.

Twitter: @ketab_n

والرعب. لكن نظراتك ملأى بالحزن كالليل، وقلبك مهتاج كعاصفة تزمجر بين الغابات. أنت تعاني وتبكي. وفي «أرتادي»، بين أشجار الكستناء في الأسفل، ثمة صبية جميلة كالأمل وعذبة كالبركة، لكنها تتنهد بحزن عندما تتمتم شفتاها باسمك. إيرانزو! إيرانزو! لماذا تمضي صوب «غارابايتا»[1] في «أرتادي»، إذا كانت حياتك تمضي بهناء وسعادة في موطن أجدادك؟ ألم تسمع، ذات مرّة، أن ظلال الحزن والحداد ترين على حياة ابنتك؟

ذات يوم، عندما كانت طفلة في المهد، وُضعت تحت شجرة بلوط كبيرة تظلل مدخل الدار. ومرّت بها سيدة مسنّة من الـ«أستيا»[2]، وحدّقت بها بنظرات مثقلة بالمشاعر.

وفجأة، تغرغرت عينا السيّدة بالدموع. وبنبرة حزينة، نطقت شفتاها المرتجفتين اسماً. لم يكن سوى اسم ابنها – ابنها الذي فقدته قبل شهر، فهزّت ذكراه قلبها الأمومي بعنف! فحتى الـ«أستيا»، عندما يكُنّ أمهات، تنضح قلوبهن بالحب ويشعرن بالشغف نحو الصغار الذين أنجبنهم!

(1) «غارابايتا»: تعني تجميع السرخس المكسور. وفي ذلك العمل الريفي، يتآزر الفلاحون وعائلتهم وأقاربهم مع ملاك الأراضي. ويدوم بضعة أيام. عند نهاية يوم العمل، يسلي الشباب أنفسهم بالغناء والموسيقى والرقص. ويصرف المسنون أوقاتهم بالألعاب أو رواية الحكايات. وبهذه الطريقة، يتحول عمل شاق إلى احتفال ريفي.

(2) «أستيا»: تعني الكلمة باللغة الباسكية «الساحرة». وتشير إلى من يمارس فنون التكهن بالمستقبل، ورمي الناس التعويذات واللعنات.

Twitter: @ketab_n

وإذ لمستها بحنو ذكرى من فقدت، تجرّأت على طبع قبلة على الخدّ الوردي النضر. وببراءة، رفضت الطفلة تلك القبل وذاك العناق، مُبدية الذعر والخوف. وبشكل حقود، رمت العجوز على جبهة الطفلة كلمات غامضة من اللعنة والموت! ألم تصلك أياً من تلك الكلمات يا إيرانزو؟ اسمع. اسمع.

لقد فحّت العجوز بتلك الكلمات: «لتحلّ اللعنة على أول شاب يخفق له قلبك، ويتلقى قبلة الحب الأولى منك!».

يا إيرانزو، أنت أول من حرّك قلب تلك الفتاة، وأول من جعل روحها البكر ترتجف من الحب، وأول من نال عناق الحب منها. يا للشقي! لكان أفضل لك لو لاقيت قطيعاً من ذئاب جائعة في جبال «أوتوسو»، من مقابلة العينين الزرقاوين لتلك الفتاة من «أرتادي»! كيف لك أن تحلم بطلب يد تلك الوريثة الثرية، وأنت جندي بسيط من «بيسكاي» يتلخّص ميراثك في بلاطة وشجرة ومعطف زرد[1]؟ أهرب منها، يا إيرانزو! إنسَ أنها تنتظرك وراء نافذتها، مُصغية بقلب خفّاق لوقع خطاك!

(1) بلاطة وشجرة ومعطف زرد: بموجب قوانين الـ«فيوروس» القديمة في «بيسكاي»، يرث الابن الأكبر كل الممتلكات، تاركاً لإخوانه زرد الفارس، وشجرة للإشارة ولا ريب إلى عمق التمسّك بالأرض، وبلاطة لترمز إلى منزل العائلة.

Twitter: @ketab_n

ولسوء الحظ، لن يرتد إيرانزو الابن، لأنه مُصاب بالحب. ولن يعود قبل أن يراها،

حتى لو اقتضى ذلك أن يقفز فوق شقوق «إيتز- بلز»[1] التي تتصل بحفرة لا قرار لها. إنه يعدو ويعدو. وبعد أن طوى مسافات، وصل إلى «أرتـادي». آه، كم خفق قلبه عندما ترك ظلال الشجرة التي تظلّل نافذتها. آه، كم ارتجف حين أراه ضوء القمر جبين حبيبته! لكنها حزينة. وانتفخت بالدمع عيناها. وخالط الألم نظراتها. وشحب خداها. والحال أن ملاك الألم مر بها بسرعة، تاركاً قبلة الموت على شفتيها.

«ما الـذي يعذّبك، يا حمامة أرتـادي؟»، صرخ الشاب بصوت مشغوف.

وتمتمت: «إيرانزو؟».

«أنت تبكين، ما خطبك؟».

«طِر بعيداً من هنا، يا إيرانزو».

«ما الذي أسمعه؟».

---

(1) «إيتز- بلز»: تعني المنحدر الأسود. ويشتهر بهذا الاسم جبل في «مندارو»، فيه هاوية سحيقة جداً إلى حدّ أن الناس اعتقدوا بأنها تتصل بوهدة لا قرار لها في الجحيم.

Twitter: @ketab_n

«آه. أسمع خطوات أبي تقترب. امضِ يا إيرانزو. ولكن، سأقول كلمة أولاً. طلب يدي إيش- خوان من إيغالدو».

«بماذا أجبته؟ ماذا قال له أبوك؟».

«وافق أبي. وأنا...».

«هل تردّدت؟».

«ماذا أستطيع أن أفعل؟ إنه أبي».

«إنه أبوك، هذا صحيح. لكني... حبيبك. آه. قولي لي، هل تحبينني؟ إذا كان ذلك، فتعالي معي. طيري معي! تعالي. سأعطيك قلبي وحياتي. سأسعى لأكسبك ثروة وشهرة».

«إن ذلك مستحيل يا إيرانزو!».

«آه. بل اسمعيني».

«صمتاً»، صرخ وجه مُسنّ من «أرتادي»، في اللحظة التي ظهر فيها على النافذة. «بفضل الحب الذي تكنّه ابنتي لك، سأعطيك فرصة أخرى. ولكن، تذكّر أنك إن لم تُحضر كل ميراثك من الـ «ميلارس»[1] خلال خمسة عشر يوماً، فستصبح

(1) «ميلارس»: في الأصل، أشارت الكلمة إلى الضريبة التي فرضتها قوانين الـ«فيوروس» على الإرث. ولاحقاً، صارت تعني كل الثروة التي تأتي من طريق الميراث والمهور والتركات.

Twitter: @ketab_n

عذراء أرتادي زوجة للإيش- خوان من إيغالدو. ولتكن السماء بعونك».

في غمرة غضب هائل، صرخ الشاب: «ربما فعل الشيطان. فلطالما أصمّت السماء أذنيها عن دعواتي وتوسلاتي!».

ودوّى رعد من عاصفة، رداً على هذا القول غير التقيّ. وشقّت صاعقة الجذع الضخم للشجرة التي وقف قربها الشاب، فانقسم شطرين.

ورفع إيرانزو، وقد ارتسمت على محياه علائم المهانة الشاملة. وحدّق بالنافذة القائمة. وطفق يعدو على غير هدى، في الجبل والوادي، مزمجراً من الغضب، موجّهاً دعائه إلى السماء وجهنم، في نفس واحد. وإذ استدار حول تلّة، ظهر ضوء أزرق شاحب أمامه.

وتراقص ذلك الضوء باهتياج، كأنه يرتجف في كل لحظة. ووقف الشاب لبرهة قصيرة، مُحدّقاً بالضوء باستغراق كلي. ولكن سيطر عليه رعب غيبي من تلك الالتماعات الشاحبة الغامضة. واستدار عائداً ليتجنّبه. وتبعه الضوء سائراً أمامه. وبعد مدّة، تضايق الشاب من ملاحقة الضوء له، وقرّر أن يعاود السير قُدماً.

Twitter: @ketab_n

وبشكل متهور، أراد أن يصل إليه ليطفئه. لكن عبثاً. إن سار قدماً، مشى الضوء أمامه، وإن ارتد راجعاً، يستدير الضوء عائداً أيضاً. لم يستطع الشاب الوصول إلى الضوء، الذي بدا حريصاً على ترك مسافة بينهما. وأثار الضوء اضطراباً في روح الشاب، بالتماعاته الشريرة الخلاّبة.

«إنه قدري»، دمدم الشاب بيأس. واستمر في السير، مُسلماً نفسه إلى قدره. وركض كلاهما. سار الضوء في المقدمة منزلقاً على الظلال في اهتزاز مستمر. ولحقه إيرانزو بصمت وأسى. ولو سلك أي جبلي في الدرب التي سلكها إيرانزو، وقابله ذلك الضوء، لرسم إشارة صليب بسرعة، وشدّ من خطاه. وفي وقت متأخر من الليل، وصل كلاهما إلى «إيسيار». سار الضوء في الشوارع، متبوعاً بالشاب. ثم وصلا إلى ساحة الكنيسة.

وانزلق الضوء على باب المعبد بخفّة. وبعد أن ارتعش بسرعة، اختفى بين الظلال. وعلى رغم عتمة الليل، لاحظ الشاب أن باب الكنيسة نصف مفتوح. وأطل برأسه إلى الردهة كي يرى ما بداخلها. ولقد راودته أفكار خبيثة لحظة أطلّ من الباب، إذ شعّت عيناه بنار شريرة. وغلبته، أو بالأحرى قادته، عاطفة غير مفهومة. وشرع يقلّب نظره في المكان، بنظرات نهمة. ولم يرَ

Twitter: @ketab_n

سوى الظلال التي ألقتها الأشياء المقدّسة، والتي كانت تتحرك تحت الحزم الأخيرة من مصباح شارف على الانطفاء. وفي تلك اللحظات، اجتاحته الأفكار المظلمة بقوة أكبر.

وزادت من جنونه الرؤى المغوية التي قادته إلى المعبد، كي يستطلع الثروات الكامنة فيه. وتجاذبه صوتا الضمير والإغواء. ولم يجرؤ على الدخول، لكنه تمتم مرتجفاً: «لقد قادني الضوء إلى هنا. آه، يا ضوء قدري. من أين تراك أتيت؟ هل جئت من العالم السفلي؟ لا يهم ذلك، إن أعطاني ثروات الميلارس التي أحتاج، فسيعطيني سعادتي».

وتردّد للحظة. ثم بذل جهداً هائلاً كي يعبر العتبة. وبخطى مصممة، اتجه نحو المذبح. وفي تلك الأيام، كما الحال الآن، زيّنت جبهة تمثال السيّدة العذراء بإكليل من ذهب مرصع بالحجارة الكريمة. وتدلت من يدي التمثال مسابح لا تقدر بثمن.

وإذ ألفى نفسه واقفاً قريباً من المذبح، أحسّ إيرانزو بركبتيه تتهاويان من تحته. «آه، لو أنني أمتلك هذه المقتنيات الثمينة»، قال لنفسه مُحدقاً باشتهاء إلى التمثال «آه، لو امتلكت الشجاعة الكافية. ولكن، من يجرؤ أن يمدّ يده الشريرة ليلمس جبهة تمثال تلك التي اجترحت المعجزات؟». وعلى رغم ذلك، اقترب

Twitter: @ketab_n

غريزياً من المذبح، إلى أن وصل إليه. وهبت ريح أزاحت الستار عن ملكة الملائكة. وارتعد الشاب، لكنه لم يغادر المذبح. وفجأة، رددت قبة المعبد من الداخل، أصداء طلقات مدافع، وصل عددها إلى إحدى وعشرين طلقة[1].

تلك كانت تحية رقيقة من بحار جسور، موجهة إلى «سيدة إيسيار»: نجمة البحر.

«ما الذي كنت موشكاً على فعله، أنا الرجل الشقي»، تمتم نازلاً من المذبح.

«ثمة رجل شجاع، ربما كان أخي جوناس، يرسل عبر الظلام تحياته وصلواته إلى أم البشر. وفي اللحظة عينها، كانت يدي المجرمة تمتد محاولةً اختطاف تاجها! كلا. كلا. لن أُلوّث روحي بتلك الفعلة المقيتة. أُفضّل أن أموت فوراً! وليخنق الموت بذراعيه الأسى والندم». وإذ قال ذلك، ارتمى راكعاً قرب تمثال السيّدة العذراء. وصلى باكياً. وسالت على خديه دمعتان محرقتان. ولكن تلك المشاعر التقية لم تدم طويلاً في قلب منتفخ بالكبرياء. فلقد رمى الشيطان الذي توسله في غمرة يأسه، ظلاً مميتاً فوق الجزء الطيّب من طبيعته. واستحضر إلى مخيلته بحرقة صورة محبوبته،

(1) إحدى وعشرون طلقة: جرت العادة منذ القدم على أن تطلق سفن الباسك إحدى وعشرين طلقة، عند رؤيتها لكنيسة «سيدة إيسيار».

Twitter: @ketab_n

وقد سكبت عيناها الدموع، واهتاج قلبها، متوسلة إليه بصوت العاطفة. ورأى نفسه محمولاً على جناح الحب، طائراً قربها مطوقاً إياها بذراعيه. وجاء أبوها ففرق بينهما، مُسلماً الابنة إلى منافسه الذي يعتزم أن يأخذها معه إلى الأبد. وفي غمرة هذيانه، رنّت في أُذنيه الكلمات الكريهة للرجل المسن: «إن لم تُحضر كل ميراثك من الميلارس خلال خمسة عشر يوماً، فستصبح عذراء أرتادي زوجة للإيش- خوان من إيغالدو». وفي قلبه المتفاخر، ألقيت نيران من الحب والغيرة والرغبة في الثأر.

وسيطر دوار من غضب عارم على رأسه. وبقفزة، اعتلى المذبح. ومزّق الستائر التي تحيط بالتمثال الجليل للسيدة العذراء. ونزع التاج الرائع الذي طوّق جبهتها، ثم ركض بسرعة خارجاً من الكنيسة. وعند تخطيه العتبة، سمع صوتاً وَقَرَ في أذنيه تقريباً، قوامه الضحك المجلّل لصوت غير بشري. وتجمّد الدم في عروقه، إذ اخترقت تلك الضحكة قلبه وكأنها صرخة الموت. وطار صوابه من جنون ما ارتكبت يداه. وانطلق يعدو في أحياء «مورغويزابيل». ولم يرَ تلك العجوز من «أستيا» التي خبّأت نفسها في أحد ثنايا الساحة، ناظرة إليه بوجه مفعم بالرضا. وركض أكثر فأكثر، حتى ضاق صدره. وخانته أنفاسه. وخارت

Twitter: @ketab_n

رجليه. وتوقف محاولاً التقاط أنفاسه. وما إن فعل، حتى عادت تلك الضحكة المشؤومة المدوية إلى مسامعه. فأطلق صرخة ألم. وعاود الركض متجاوزاً الصخور المتكسرة، وقافزاً فوق الجداول، يحفزه الخوف. وملأ الزبد فمه. واندلع من عينيه الشرر. كانت ليلة قاتمة، قاتمة تماماً. وانطلق إعصار. واكتسح أشجار البلوط العتيقة، فبدت أغصانها الجافة كأنها أشباح تُنذر بالشؤم، وكأنها تدلّ بالأصابع على الشاب المُذنب. وجمحت المخيلة بالشاب، فتصور ظلال الغابات وأسيجة المراعي المتمايلة، وكأنها فيالق من الشياطين تنبثق من تحت الأرض وتحاصره كلما ضربت قدماه الأرض. وظل سائراً لساعة ثم اثنتين ثم ست، من دون توقّف، ومن دون أن يخفف من سرعته، بل إنه قليلاً ما جرأ على التقاط أنفاسه. وأشرق يوم جديد. وتوقفت تلك الضحكة الشريرة، مع تبدّد الليل وهدوء الريح. وتوقف لينال قسطاً من الراحة عند جذع شجرة كستناء، خائر القوى مبهور الأنفاس. لكنه رغب في أن يعرف موقعه أولاً، فتسلق الشجرة ليراقب الأرض. وتمتم خلال صعوده: «كم مشيت؟ لا بد أنني بعيد، بعيد جداً». وخلال ساعة، شقّ النهار طريقه عبر الظلال، وسكب نوره على الأشياء وعبرها، فتغيّرت أشكالها.

Twitter: @ketab_n

«لا أستطيع أن أميّز شيئاً»، قال مُثبّتاً عينيه بشوق على الشرق، حيث الأفق ممزوج بنور الفجر الناعم. وبضربة وحيدة، بددت الشمس الضباب والغمام، ساكبة فيضاً من النور على المعبد الرائع الذي انتصب بجلال عند أقدام جبال «أندوتز» البيض.

وما إن شاهده المسكين، حتى أحسّ بقلبه يتجمد بين ضلوعه من الرعب. ونضح عرق بارد على جبهته الشاحبة المتعبة. ولم يكن البناء الذي انتصب أمام عينيه سوى كنيسة سيدة «إيسيار»، التي لم يبعد عنها أكثر من ألف ياردة، على رغم ركضه المجنون لسبع ساعات. وظن أنه ضحية كابوس، فأغلق عينيه كي لا يرى الصرح المهيب. وعندما فتحهما مُجدّداً، رأى مقاتلين يسيرون في الاتجاهات كلها، كأنهم يبحثون عن شيء ما في البراري والغابات. لا شك في أن الجريمة الدنسَة قد اكتُشفَت، وأن هؤلاء الرجال يسعون خلف السارق. وفي تلك اللحظة، اقتنع بأنها الحقيقة الرهيبة، فأحنى رأسه في يأس ورعب. في تلك الأثناء، أخذ الرجال بالاقتراب منه، إذ اقتفوا آثار أقدامه خطوة خطوة. ورآهم إيرانزو يدنون منه، فودّ لو أنه يقفز من الشجرة، لكن المسروقات أثقلته، فلبث في مكانه وكأنه مسمّر إلى تلك الشجرة. وإذ ندب ضعفه، تمنى لو يستطيع التخلص من المجوهرات كي يخفي جريمته. ولكن، ما إن مدّ يده

Twitter: @ketab_n

إلى صدره، حيث أخفاها، حتى أحسّ أن أصابعه تتفحم عند ملامستها. وفي عذابه الرهيب، بذل جهداً أخيراً يائساً كي يمزّق سترته الصوف، لكن مساعيه ذهبت عبثاً.

وقاومت السترة جهوده، فكأنها قُدّت من حديد. وفي ذلك الوقت، اكتشف الرجال موضعه، فاقتربوا من الشجرة مسرعين. وتحلّقوا على هيئة دائرة، كي لا يتركوا له فرصة للفرار. آه، عندها لعن حبه المشؤوم ووجوده وجريمته. وفك السوار الذي تمنطق به. وصنع منه أنشوطة. وشنق نفسه على أحد الأغصان. وعندما وصل إليه ملاحقوه، وجدوه في النزع الأخير، بحيث لم يقدر على شيء سوى إخبارهم بجريمته الدنِسة والظروف الحزينة التي أحاطت بها.

منذ تلك الحقبة، عرفت القمة التي جرت فيها تلك الأحداث باسم «هوركا- مندي»، التي تعني جبل المشنقة. وإذا رغب أحد في تمحيص تلك الأساطير، عليه التقدّم من النواحي الممتدة يسار الطريق القديم الموصل بين «إيسيار» والبحر، إلى الأرجاء المهجورة من «أربل». وسيخبره الرعاة بالموضع الذي وضع فيه الشاب التعس الحظ والسيئ التفكير، حدّاً لحياته. وسيضيفون إلى ذلك قولهم إنهم يسمعون، في ليالي الشتاء الحالكة، التنهدات الكئيبة لروحه الهائمة في الغابات.

Twitter: @ketab_n

المعارف العامة
الفلسفة وعلم النفس
الديانات
العلوم الاجتماعية
اللغات
العلوم الطبيعية والدقيقة / التطبيقية
الفنون والألعاب الرياضية
الأدب
التاريخ والجغرافيا وكتب السيرة

كلمة
KALIMA

أبوظبي للثقافة و التراث
ABU DHABI CULTURE & HERITAGE

ISBN 978-9948-01-507-9
9 789948 015079